الباب الرابع

فى مباحـــث عالـــم الإنســـان

مع العفريت جان الجان

obeikandl.com

obeikandl.com

[٢١] **قال الشيخ أبو المحاسن** ؛ مَنْ ماءُ ينابيع علمه فى مجارى بدن الفضل غير آسن : فلما أنهى الحكيم حسيب ذو الفضل النسيب ، حكاية ما طرَّزَه مما نسجه وحاك ، وفصَّلَه خياطُ تقديره على قامة المجد من خُلَع حكم العرب والعجم والأتراك ، شكره أخوه القيل على هذا القيل ، وأفاض عليه من نيل نواله جزيل النيل ، وأدرك من ذلك الأنموذج ، علو علمه ، وسمو حلمه ، وجميل حُكْمِه وجليل حِكَمِه ، ثم قال : يا أستاذ بلغنى أن بغداد خرج منها خارج من نار من مارج[١] وهبط إلى مدارك الخزى عن المعارج ؛ وأصل ذلك المشوم من عفريت خلق من نار السموم ، وإن شخص ذلك الشيطان جبل من سخام الدخان[٢] ؛ فلهذا ركب وجهه السواد وتركب سائر جسده من الرماد، فهو جنى ذميم ، وشيطان رجيم ، وقد شرع ذلك الخناس فى الإفساد والوسواس ، وتعاطى إيذاء أكابر الناس وأنه فى هذه الأيام نفى إلى بلاد الشام فلم يوافقه ذلك المقام ؛ لأنه مُهَاجَر الأنبياء الكرام ، وهذا مجبول على سجايا اللئام ، وطباع أهل الفساد والإجرام . فأقام فيها بالاضطرار والاضطرام مدة أشهر وعدة أعوام ، وأخذ فى الإضلال والتضليل ، فأضل خلقا كثيرا عن سواء السبيل ، وتستر ذلك الجان بحجاب الانتساب إلى جنس الإنسان ، ولبس بشق العصا ثوب العصيان ، فكمن كمون الشوك تحت ورق الورد والريحان، واحتمى فى حمى الشقاق والنفاق بشقائق النعمان[٣] ، والحق أنه من نسل العفاريت ، وكان عند الجن مقيله والمبيت ، ومن ألبانهم له غذاء وتربيت .

فقال له الملك : هديت ووقيت فإن يكن عندك من ذلك شىء ، فشنِّفْ من جواهر حِكْمِه أُذُنى ، فإنك حكيم الجن والإنس ، وكريم النوع والجنس .

---

(١) خالص النار .

(٢) الدخان الأسود .

(٣) شقائق النعمان : أحد أنواع الزهور .

قال الحكيم : نعم أيها الملك العظيم أنا جهينة الأخبار[١] ، ومزينة الأخيار[٢] ، وحكم الحكم ولى فى البيان أعلى علم . أما هذا الشخص المذكور فإنه بالفسق والفساد مشهور ، ورَقُّ شره[٣] فى البلاد منشور ، وكتاب عناده بين العباد مسطور ، وبيت جسده لنعم الله تعالى على خُلْصِ أوليائه بالفجور معمور ، وله صفات تعيسة وأخلاق خسيسة ، تأنف مردة الشياطين منها وتستنكف العفاريت عنها ، وكم له من دواهى شرها غير متناهى ، لا يفى بذكرها هذا الخطاب ولا يسع سردها هذا الكتاب ، بل ولا يقوم بذلك دفتر ولا حساب ؛ ولكن البعرة تدل على البعير ؛ فقس من هذا التقدير الكثير على اليسير ، وقد كان أراد نشر الفساد ببلاد العراق وبغداد فعاكسه القدر وأحاد، فَنُفِى من تلك البلاد فوصل إرم ذات العماد[٤] ، وتعاطى أسباب ماهو عليه من الزندقة والإلحاد فأثار أصناف الفتن وأنواع العناد ، وابتدع من الشر والبدع ما يخرج عن حصر التعداد ، وهو على ماهو عليه من المناكدة والمجاحدة وقصده الأعوج من تعديل أقوال الرافضة[٥] والملاحدة ، وسيوضع لذلك مصنف متسع على حِدَه . ولقد بلغنى أيها الملك الهمام أنه حصل له فى ذلك المقام مع عالم من علمائها الأعلام قضايا كبَّتْهُ على خيشومه ، وأظهر بها ذلك العالم دسائس خبثه وشومه ، مثل ما اتفق لعالم الإنسان مع شيطان العفاريت وجان الجان فى غابر الدهر وماضى الزمان . فقال القيل العظيم : أخبرنا بذلك أيها الحسيب الكريم .

---

(١) جهينة الأخبار : مثل يضرب للشخص العارف بحقيقة الأمور .

(٢) أفضل الأخيار .

(٣) الرق : الصفحة من الكتاب وغيره .

(٤) إرم ذات العماد : قوم عاد الأولى ، وهم ولد عماد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح وهم الذين بعث الله فيهم هوداً عليه السلام . وذات العماد ؛ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمنهم خلقة وأقواهم بطشة .

(٥) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على ، ثم قالوا له تبرأ من الشيخين ، فأبى، ثم قال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه ورفضوه . وهم من أخبث فرق الشيعة .

[٢٢] **فقال** : ذكر أن فى الأزمان الغابرة كانت صنوف[١] الجن للإنس ظاهره ، تتراءى بأشكال مختلفة وتتزيا بأمثال غير مؤتلفة ، وتظهر لهم الخيالات العجيبة والصور المموهة الغريبة ، فتضلهم ضلالا مبينا ، وتأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم شمالا ويمينا ، وتخاطبهم مشافهة وتوافيهم مواجهة.

ففى بعض الأيام ظهر ببلاد الشام مهبط الوحى ، ومهاجر الأنبياء الكرام ، ومحط رحال الرجال من أهل الفضل والأفضال رجل من العباد وأفراد الزهاد ، فاق الأقران بالصلاح وساد أهل الزمان بالورع والفلاح ، وحاز طرفى العلم والعمل ؛ فكمل كثيرا منهم بعدما كمل ، واستمر يدعو الخلق إلى خالقهم ويحثهم فى الإنابة والتوكل على رازقهم ، ويرضونه ويرضيهم فى الطاعة ، واتباع السنة والجماعة ، ويقبح الدنيا فى أعينهم ، ويحذرهم غدارتها فى مكمنها عند مأمنهم ، وكان لنفسه المبارك نقوش فى النفوس يجذبها إلى ما يريد جذب الحديد المغناطيس ، ففى مدة يسيرة تبعه طوائف كثيرة ، وانتشر صيته إلى الآفاق وصفا للعباد وقت الطاعة وراق، وضربت إليه أكباد الإبل ، وامتلأت به الدنيا من العلم والعمل ، واضطرب أمر المردة والشياطين العندة ، وتعطلت أسواق الفسوق وخرج عرق العاصى من العروق ، وتخملت العفاريت وتنكست أعلام الجن المصاليت[٢] ، وضل سبيل الضلال كل مارد خِرِّيت[٣] ، وبطلت زخارفهم وتمويهاتهم ، وعطلت وساوسهم وتشويهاتهم ، وأهانهم الناس وكسد الوسواس ، وفسد فعل الخناس .

فلما ضل سعيهم وكاد يقع نعيهم ؛ اجتمع العفاريت العتاة ، والشياطين

---

(١) صنوف ، مفردها صنف : نوع .

(٢) مصاليت الجن : شجعانهم .

(٣) الماهر العارف بالأمور .

الطغاة ، والمردة العصاة إلى إبليسهم العنيد ؛ وهو شيطان مريد صورته من أقبح الصور ، له أظلاف[1] كأظلاف البقر ، ووجه كالتمساح ، وشكل كالرماح، وخرطوم طويل ورأس كالفيل ، وعيون مشققة بالطول ، وأنياب كأنياب الغول ، وشعر كالشيهم[2] ، وجلد كالأرقم[3] ، وهو يلهث كالكلاب ومن ورائه عدة ذئاب ؛ فشكوا إليه حالهم وأطالوا فى الشكوى قالهم ، وقالوا : يا شيخ التلبيس ، وابن عم إبليس لقد عَرَتْ المدارس وبطلت منها الوساوس، وتعمرت المساجد بكل راكع وساجد وقائم وقاعد وقارئ وجاهد ، فَطُرِدَ كل شيطان مارد ، وتمشى سنن الحلال فوقف منا الاحتيال ، وأمر بالمعروف فوقعنا على الأمر المخوف ، وكثرت الحجاج فتقطعت منا الأوداج[4] ، وأُديت الزكوات والحقوق ، فطرد منّا كل عقوق ، وقام الحق فنام الفسق ، وعبد الله فى المغارات والكهوف واستد علينا السبيل فعلى من نطوف ، ولم يبق لنا على بنى آدم سلطة وصرنا فى بحارهم أقل من نقطة ، وعند جهرهم بأذكارهم أذل من ضرطة ، لا وساوسنا تؤثر فى أفكارهم ، ولا مجالسنا تعطل من أذكارهم ، ولا تخيلاتنا تتراءى لأبصار أسرارهم . فإن استمر الحال على هذا المنوال لا يبقى لنا فى الدنيا مقام ، ولا بين الجن والإنس كلام.

فلما وعى العفريت فحوى هذه الشكوى وتأمل مافى مطاويها من نازلة أحاطت بهم وبلوى ؛ اشتعلت نيران غضبه ، وتأججت شواظات لهبه ثم قال : أمهلونى أتلوى ، واتركونى أتلوم وأتروى وأفتكر فى هذه البلية وأكشفها عن جلية ؛ فإن الأمور لا تنتج لمعانيها مالم يتأمل من فراغها فى جوانبها ونواحيها ، وتحقيق المسائل إنما يوجد من محكميها .

---

(١) أظلاف ، مفردها ظلف : حافر الدابة .

(٢) الشيهم : القنفذ .

(٣) الثعبان .

(٤) الأوداج ، مفردها ودج : عرق فى العنق .

وكان هذا العفريت العاتى المارد المواتى تحت يده وأمره من مقتبسى تلبيسه ومكره الشياطين المردة ، وأغوال العفاريت العندة طوائف شتى وأمم لا تحصى ، وممن فاقهم فى المكر والمراء أربعة أشخاص كبراء وزراء ؛ كلّ منهم فى الشيطنة ، والموالسة[1] ، ومعرفة طرق الوسوسة كأبى على بن سينا[2] فى علم الهندسة ، غاية لا تدرك ، ونهاية لا تستدرك .

فاجتمع هذا الغول بوزرائه ورؤساء أشياعه وكبرائه ، ثم قال لهم: أفتونى فى أمرى وساعدونى على فكرى وسكرى ، ووجه الخطاب لكبيرهم الذى علمهم السحر المشار إليه فى الدهاء والمكر ، وقال له : ما رأيك فى هذه القضية والمواقف الردية والداهية .

فقال الوزير : يا مولانا الأمير وصاحب المكر والتدبير ، إن العقلاء وذوى التجارب من الحكماء تفرسوا بأمر قاطع من الوقائع القواطع ، فقالوا: شيئان لا بقاء لهما ؛ الروح فى الجسد ، والسعد فى الطالع ، وهذا هو الصواب ولكل أجل كتاب ، ومادام الأجل باقيا والسعد راقيا ، ومنادم السلامة ساقيا ، وحافظ العوارض واقيا لا ينفع الجد ولا يدفع الجد ولا يرفع الجهد ماأثبت السعد ، فإذا تم الأجل وبطل من السعد العمل انتكس السعد وانقلب وفارقت الروح بلا سبب ، وإذا كان كذلك فهذا الرجل الناسك سعده عَمَّال، وطالعه فى إقبال فكل سهم مكر فوّقناه[3] إلى نحو حياته يعود علينا ، وكل رمح فكر صوبنا سنانه إلى شاكلة بقائه يرجع إلينا ، فالرأى عندى أن نتربص حتى تدور به الدوائر ولا نهتم باحتيال محتال ولا مكر ماكر ، إلى أن تنقضى مدته ويسقط من سعد طالعه قوّته ، فعند ذلك يفيد سعينا ولا يضيع كدنا .

---

(١) الخداع والخبث .

(٢) ابن سينا ، أبو على : فيلسوف وطبيب وعالم من كبار فلاسفة الإسلام وأطبائهم ، عرف بالشيخ الرئيس توفى سنة (١٠٣٧) م .سير أعلام النبلاء (٤٠٠٤) .

(٣) فوق السهم : وجهه .

فقال العفريت للوزير الثانى : يا أفضل جانى ، أنت ماذا تقول ، وكيف تشير أن نصول فىْ ميدان هذا الأمر ونجول ؟

فقال : رأى مولانا الوزير سديد وكل ما أشار به فهو أمر مجيد ، ولكن كيف يهمل أمر العدو ويركن مع وجوده إلى قرار وهدو ، وإذا كان طالعه فى قوة ، فإهماله يزيد فى قوّته ، والتهاون فى أمره مساعدة فى معاونته ومعاونة فى مساعدته ، وهذا من علامات العجز والانكسار ، ومن أقوى الأدلة فى الانحطاط والصَّغَار ، وإن رب الأرباب وضع عالم الكون والفساد على الأسباب ، فلابد من تعاطيها فى هذا الباب وبذل المجهود فى معاملات الأعداء والأحباب ، ولم يقتصر الشارع على التقدير والطالع ، إذ فيه حسم مادة الشرائع والتعرض لإبطال حكم الصانع ، فعندى أن نبذل الجهد فى حسم مادّتهم وتعاطى كسر شوكتهم ، وبذل الجهد والجد بما تصل إليه اليد ، وثبات الأقدام فى إثبات الإقدام كما قال الشاعر وهو سلم الخاسر فى ثبت الجاسر :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسِ مَاتَ غماً وَفَازَ بِاللَّذةِ الجَسُورِ

وهذا الشاعر المسمى أخذه من أخينا بشار الأعمى من لنا بوجوده أنس وهو شيطان الإنس حيث يقول ذلك الغول :

من رَاقَبَ النَّاسِ لَمْ يَظْفَر بِحَاجتِهِ وَفَازَ بالطيباتِ الفاتك اللهج[1]

فاعزموا على هدم ما يبنون ، وصدم ما يعنون ، والأخذ فى تمزيق جلدتهم وتفريق كلمتهم ؛ إذ لا اطلاع لنا على مساعدة الطالع ولا حد لبقاء الأجل ؛ فضلا عن أن نقول هذا الحد جامع أو مانع ، وهذا الرأى عندى أولى ورأيك يا رئيس التلبيس أعلى ودونك يا غول هذا القول :

إذا كانتْ الأعْدَاءُ نَمْلاً فأتهم إذا لم تطأهم أصبَحوا مِثْلَ ثُعْبان

---

(١) اللهج : من تمسك بالوصول إلى مراده .

ومن هذا المقال يا أبا الأغوال :

واللِصُ لَيْسَ لَهُ دَلِيلٌ سَاتِر نَحْوَ الَّذى يَبْغَى كَنَوْمِ الحَارِسِ

والأصل فى هذا كله : حسم مادتهم ، ورد جادتهم ؛ وذلك لا هلاك مرشدهم وإفساد زاهدهم ، فإن قدرنا على إهلاكه وتمزيق حبائله وأشراكه ثبتت شملهم وتبينت جلهم وقلهم .

فقال العفريت للوزير الثالث وكان أنحس عابس : قل لى أيها الوزير سنح لك من التدبير فى هذا الأمر المبير[1] والخطب الخطير ، وماذا ترى فيه وتشير ؟

فقال : لا شك أن الطبّاع تميل إلى ما تسمعه وما يلقى إلى النفس لابد أن يؤثر موقعه ، وما أشار به ودبره الوزيران وهما نعم المشيران ، فهو لا يخلو عن فوائد بل هو متحلٍ بعقود الفرائد ، وإنى لأعلم أنه أثر فى الخواطر كما يؤثر فى الرياض السحب المواطر .

وبالجملة فللكلام تأثير فى النفس كما تظهر آثاره فى الحس ؛ ولهذا ترى رقيق الشعر يفعل مالا يفعله دقيق السحر ، وجليل العبارة فيه من الإثارة ما يشجع الجبان ، وينشط الكسلان ، ويسخى البخيل ، وينجى الذليل ، ويسحر الأرواح ، ويسخر الأشباح ، ويعطف القلوب ، ويؤلف بين المحب والمحبوب، ويصير العدوّ صديقا ، وغليظ الأحرار رقيقا ، وتأمل يا بنيه ما قيل فى البدية :

حَدِيثٌ إِذَا مَادَمتْ دَهْرى انْتَخَى وَكَفٌّ عَنْ الإيذاء وَعَادَ إلى الإخَا
أُذَكِّره أَخْلاَق مالِكِه الَّذى تَعَلَّم مِنْه العِلْم وَالحِلْم والسَّخَا
أَنَالُ بِهِ مَالاَ يُنَالُ بِقُوةٍ وأرواحَ أشباحٍ أتت بَعْدَمَا شَمَخَا

---

(١) المهلك .

وهذه قضية تحتاج إلى إعمال الروية وإمعان النظر وتدقيق الفكر ، وعندى الرأى السعيد السديد والفكر الحميد المجيد إن التعرض إلى هذا الرجل الدين الداعى إلى طريق الحق البين ليس بمحمود ولا طالع قاصده بمسعود فإنه على الحق متشبث بأذيال الصدق ، ومن قصد مصادمة الحق اصطدم وفى مهاوى الهلاك ارتدم .

[٢٣] وقد كان فى بنى إسرائيل رجل من أهل التبجيل ، عاملا بالتوراة والإنجيل ، مشغولا بالعبادة ، باذلا فى إقامة الحق اجتهاده ؛ فتعرض له جماعة من أهل الفسق والخلاعة فتعاطوا أهلاكه ، وفجعوا به نساكه ، فقتلوه بغير حق فغار له الدين ورق . فأخبرنى من لا يُتهم بكذبه أنه قتل سبعمائة ألف نفس بسببه ؛ فذهب بسبب ذلك الصالح من بنى اسرائيل الصالح بالطالح، ومن كان مع الحق هاديا إلى الصدق ، فإن الله تعالى معه ومن كان الله معه منعه وحرسه وما ضيعه ، ومن تصدى لضياع ما حفظ الله ، وعزم على ابتذال من أعزه مولاه وكلاه ؛ فقد قصد خراب عمره وعمارته وباع رأس مال تجارته وربحه بخسارته ، وجنى بيده على نفسه وحفر بيد تدبيره مهواة رمسه[١] .

واسمع يا نعم العون ما جرى لمؤمن آل فرعون ؛ حيث كان على السداد داعيا إلى سبيل الرشاد وقصدا هلاكه أهل الفساد فقال ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّه بَصِيرُ بِالعِبادِ**﴾ [غافر:٤٤] .

فغلبوا هنالك وانكسروا ووقاه الله سيئات ما مكروا وأيضا لو قتلنا هذا الرجل وكان على أيدينا له حِمَام[٢] الأجل ؛ فلا شك أنه يقوم مقامه من يلم عظامه ، ويزم زمامه ويحيى بعده أيامه فيقيم شعاره ويكتب ما قدم وآثاره ،

---

(١) قبره .

(٢) قضاء .

فإن تلامذته كثيرة وطوائف جماعته غزيرة ؛ فينتظم لهم بعده الأمر ولا يضرم لنا من كيدنا الجمر ، وإذا علموا أن ذلك منا واشتهر ذلك الكيد عنا ؛ أخذوا منا حذرهم وصوبوا إلينا عداوتهم ومكرهم . ثم عملوا على استئصالنا واستعدوا لقتالنا ؛ لأنا أهلكنا معتقدهم وهدمنا عمادهم ومعتمدهم ، ولا يمكننا بعد ذلك طلب الملامة والسلامة ، وتستمر العداوة بيننا وبينهم إلى يوم القيامة، مع أن عداوتنا قديمة . وبالجملة فعاقبة من عادى أولياء الله وخيمة إذا تقرر هذا القول وثبت بطريق المعقول .

فاعلم أيها الغول والشيطان المهول أن الرأى الصواب فى هذا المصاب؛ أن نبادر إلى هذا الرجل وجماعته بإفساد طاعتهم وطاعته ، وحيث لا يتيسر لنا المواجهة ولا الخطاب والمشافهة ، ولا الإضلال فى الظاهر بصورة المتجاهر ، فنزين لهم حب الدنيا وشهواتها والميل إلى زينتها ولذاتها والركون ، إليها والاعتماد عليها ، ونلقى إليهم طول الأمل وبعد الأجل ؛ فنثبطهم[1] بذلك عن العمل وندعوهم إلى التهاون والكسل . ثم بعد ذلك نجلو خدود عرائس الحرص على أبصار أفكارهم ، وقدود موائس الشُّح[2] ، وحب المال على أعين خيالاتهم وبصائر أسرارهم ، فإذا ذاقت ألسنة عقولهم حب الدنيا وتمكنت فى أدمغة سويدائهم الرغبة فى الآباء والأبناء ؛ سُلِبوا حلاوة الطاعة ، وتفرقت منهم الجماعة ، وزاغوا عن الطريق الأقوم ، وراغوا عن السبيل الأُمَّم[3] ، فنتوصل إذ ذاك منهم إلى مقاصدنا ونوقعهم كيفما اخترنا فى مصايد مراصدنا ؛ لأنهم هبطوا من سماء المنازعة إلى الأرض ، وأهلكوا بأيديهم أنفسهم إذ بغى بعضهم على بعض ، فتحاسدوا ، وتحاشدوا ، وتدابروا، وتفاخروا ، وتكالبوا ، وتضاربوا ، وتواثبوا ، وتجانبوا ، وتناهبوا ، وتسالبوا،

(١) نعوقهم ونحبطهم .

(٢) موائس ، مفردها مائسة : المرأة الجميلة ، والشح : البخل . المعنى تزيين البخل لهم.

(٣) الذى يأتمه الناس ويسلكونه .

وتلاسبوا[1] ، وتقابلوا ، وتقاتلوا ، وتفرقوا ، وتمزقوا وتحرقوا ، وتمرقوا[2] ، وانحاز كل منهم إلى ناحية ، وأعجب كل برأيه فلا تعرف منهم الفرقة الناجية، إذ تفرقت أهواؤهم ، وتصادمت آراؤهم ، وجذبت أغراضهم إلى الانحناء ، وجلبتهم أمراضهم مع الأهواء ، ومال كل منهم إلى صوب ، وأيس منهم إلى الصواب الأوب[3]، وتعدد الخلق الذمر ولبس كل لصاحبه جلد النمر. ثم بعد ذلك زلوا وأزلوا ، وضلوا وأضلوه ، فتمكنا فيهم كما نريد، وتصرفنا فيهم تصرف السادات فى العبيد ، وسلطنا عليهم دواعى الغضب والشره ، ولعبنا بشيوخهم لعب الصبيان بالكرة ، فنصوب لهم أقوالهم ونزخرف لهم أفعالهم كما قال من خلقهم وأحوالهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل:٢٤] .

ولا نقصد بذلك إلا كبراءهم وفضلاءهم وعلماءهم وزهادهم ورؤساءهم وحكامهم وحكماءهم ، ولا نفتر عن مكايدتهم ولا نميل عن مكايدتهم ، ونجرى فى عروقهم ، ونسكن فى فروقهم ، ونحركهم فى رعودهم وبروقهم، فإن تحركوا إلى خير سكناهم ، وإن سكنوا عن شر حركناهم ، وإن عزموا على الآخرة صددناهم ، وإن جزموا إلى مواطن رددناهم ، وإن أمّوا مفسدة قدناهم ، أو همّوا إلى معصية سقناهم ، ولابد لهذا العمل الكثير من تأثير ولبيدق[4] جد فى المسير أن يصير . وبالجملة فنبذل فى كل عامة جهدنا وجدنا، ولا غضاضة فى ذلك علينا ؛ لأنه صنعة أبينا وجدنا ، وقد أخبر بذلك جدنا اللعين لما خالف رب العالمين كما أخبر فى الكتاب المبين فى قوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] .

---

(١) تضاربوا .

(٢) مرق من الدين : خرج من الدين بضلالة أو بدعة .

(٣) العودة والتوبة .

(٤) الدليل الماهر .

فإذا رآهم الناس وقع بينهم الباس ، وحصل لهم منهم اليأس ، وتراجعوا عنهم وهربوا ، منهم وفسد اعتقادهم فيهم بل قتلوهم بأيديهم ؛ فإذا ظهر فسوقهم وكسد سوقهم فإن شئنا أوقفنا حالهم وإن رُمنا إلى الهلاك نسوقهم، وأوثق ما يتصل به إليهم من الأسباب هى حالة الإنفراد والإعجاب ، وحالة الاجتماع للكذاب ؛ فإن الإعجاب يهوى فى النار والكذب يخرب الديار . وناهيك قضية التاجر مع عبده الكذاب الفاجر فسأله شيخ الجن عن بلية ذلك القِنِّ[1] .

[٢٤] **فقال** : ورد فى الخبر عن شخص معتبر قال : كان بمكان تاجر ذو مال وزوجة ذات جمال ؛ كلّ يهوى صاحبه ويرعى جانبه ، ويفديه بروحه، ويترشف رضابه[2] فى غبوقه وصبوحه[3] ؛ كأنهما زوج حمام وفى بذمام . ففى بعض الأيام قال أحدهما لرفيقه ؛ وهو يرشف من كأس عقيقه شهد رضابه بخمرة ريقه : لو كان لنا عُبَيْدُ يتعاطى مالنا من حاجة ويخلصنا من جميلة عمرو وزيد ؛ فذهب التاجر إلى سوق الرقيق فوجد مع النخاس عبداً ذا قد رشيق ، ينادى عليه أبيعه بكذا على مافيه من أذى ، فقال : وما عيبه ؟ قال : كذبه لا على الدوام ؛ وإنما هو مرة فى كل عام ، فقال : عيب هين ، وشين[4] لين . فاشتراه وأتى به إلى داره وارتضاه ، فاستمر فى خدمة حَسَنَة حتى أتى عليه سنة ، ونسى سيده عيبه وأمن ريبه وجرب بالأمانة يده وبالطهارة جيبه .

فلما مضى عليه عام ، كان سيده فى الحمام ، فأتى البيت فى بعض الحوائج فى صورة الجمل الهائج ، شاهقا باشرا ، صائحا ثائرا ، صارخا : وا ويلاه وا سيداه وا مولاه ، فسئل مالك لا أحسن الله حالك ولا أنعش بالك ؟

---

(١) العبد .

(٢) الريق المرشوف .

(٣) الغبوق والصبوح : ما يشربه فى المساء والصباح .

(٤) عيب .

فقال : رمح البغل بسيدى فما تمالك أن تهالك ، وسلم الروح لخالقها ، وقال لوارثه تسلم مالك ، فأقيم العزاء والسخام[1] وتركهم وأتى للحمام ، وهو يبكى وينوح ويصرخ فسأله مولاه ما دهاه ؟

فقال : وقع البيت على كل من أويت ، ولم يبق فى الدار نافخ نار ، فهلك الكبير والصغير ونُهِبَ مافيها من جليل فيها وحقير ، فخرج وهو يستغيث من حديث ذلك الخبيث ، فوجد أهل البيت سالمين ورأوه من الناجين فعزم على خباطه[2] ؛ فذكر له ما سلف من اشتراطه . ثم إنه استقام ونسى هذا الكلام ومضى عليه عام . فاستئنف ذلك الخبيث أمره العبيث ، وقال لامرأة مولاه : يا هنتاه إن كنت نائمة فاستيقظى وخذى حذرك وتيقظى، واعلمى أن نية صاحبك أن يُلْقى حَبْلِك على غاربك[3] ؛ لأنه قد عشق عليك ونبذ حبل حلك إليك وتعلق قلبه ببنت رجل كبير ولا ينبئك مثل خبير وقد حملنى على نصيحتك الشفقة وما أسديت إلىَّ من إحسان وصدقة ، فبادرى قبل حلول البأس ونزول الفأس فى الرأس . فأثر فيها هذا الحديث فاستشارت ما تفعله ذلك الخبيث .

فقال : لو ظفرت بشىء من شعره لكفيتك مؤنة مكره وفكره ، فإن لى صاحبا منجما وأستاذا معلما يَرقِى الشعور ويجعلها فى النحور ، وإذا وجد إلى خيشومه مساغة ودخل البخور دماغه ، صار عبدا لك على الدوام، وحظيت عنده بالمراد والمرام وارتقيت إلى أعلى مقام ؛ ولكن ينبغى أن يكون من شعر لحيته النابت على ترقوته .

---

(١) السخام : السواد . المعنى إقامة الحداد ولبس السواد .

(٢) إذائه وضربه .

(٣) الغارب : ما بين العنق ، السنام فى الناقة ، وألقى حبل الناقة على غاربها ، أى ترك لها حرية الحركة ، وهو مثل يضرب لمن يترك الأمر ولا يتدخل فيه .

قالت : وأنَّى لى أصل إلى ذاك وقاك الله شر أذاك ؟

فقال : إذا نام وغرق فى المنام فاحلقى منه بموسِى لتكفى الضرر والبوسى ، وأنا آتيك بموسى يحلق الشعور فافعلى ذلك من غير أن يكون له شعور ، فاتفقا على ذلك الاتفاق ، وأتاها بموسِى حلاق . ثم توجه إلى مولاه وقد أضمر له مادهاه ، وقال : أشعرت يا ذا الفضائل إن زوجتك البديعة الشمائل تغير خاطرها عليك وتقدمت بالإساءة إليك ، ولولا أنك شفيق علىَّ وعزيز مكرم لدىَّ ما أنبأتك من أخبارها بشىء ، فإنى أريد أن يكون ما أنهيته إليك مكتوما إلى أن يصير عندك محققا معلوما ، وقد أرسل إليها من يخطبها، وأمالها عنك بما يرغبها ، واتفق معها أنها تقتلك وتستريح وتصبح فى فراشك وأنت ذبيح ، وذلك يقوم بديتك وقد أرسل إليها من الجواهر والأموال أضعاف قيمتك ، فإن أردت مصداق هذا الكلام ، فتناقل عندها فى المنام ؛ ليزول الشك باليقين وتتحقق أنى من الصادقين ، فأثر هذا الكلام فيه وخاف من مكر النساء ودواهيه .

فلما أقبل العشاء وأحضروا العشاء تناول من ذلك الطعام ، ونهض إلى الفراش لينام ، وأظهر بين القوم أنه غرق فى النوم ، وغمض عينيه ، وانحط وسال لعابه وغط ، فنهضت الزوجة إليه وفتحت الموسِى ودخلت عليه ، ومدت يدها إلى لحيته ووضعتها على ترقوته ، ففتح عينيه فرأى آلة الموت متوجهة إليه فما تمالك أن وثب عليها وجثم إليها ، وخرج زمام تفكره عن يد تأمله وتدبره ، وخطف الموسى من كفها وسقاها كأس حتفها . فلما رأى فوران الدم أدركه لاحق الندم ، وقد تبدل الوجود بالعدم ، ووقع القال والقيل واشتهر أمر القتيل ، وعلق فى شر الاقتناص وعُومِل فى صاحبه بالقصاص .

وإنما أوردت هذا الكلام ؛ لتعلم أن ما أهلك الأنام ، وأوقعهم فى شرك الآثام والكفر والفسوق والحرام مثل الكذب فى الكلام ، وهو لنا أوثق زمام

ولجذبهم إلى ما قصدنا من المرام أحكم خطام[1] وأعظم خزام[2] ، فاستحسن العفريت هذا الرأى واستصوبه ، وأعجبه ما تضمنه من معان واستغربه .

ثم قال : رأيت يا أصحاب من الرأى الصواب أن أجتمع بهذا العالم الزاهد العامل العابد فى محافل غاصة[3] ، وأسأله عن مسائل عامة وخاصة، وعن أسرار رقيقة أطالبه بإعجازها والحقيقة ، وأنا أعرف أنه يُفْحَم عن جوابى ويلجم عند أول خطابى ؛ فإذا عجز عن جواب المسائل فى تلك الجموع والمحافل تحقق الحاضرون جهله ، فنبذوه من أول وهلة ، واعترفوا لنا بالفضل الوافر والعلم الغزير المتكاثر ، فصاروا لنا أوداء[4] والفضل ما شهدت به الأعداء ، ورجعوا عن اعتقاده ونفضوا أيديهم من محبته ووداده، وربما سعوا فى دماره وخراب دياره ، فيكفونا أمره ويزيحون عنا شره ، وأقل الأقسام أن جماعة ذلك الإمام إذا رأوا مالنا فى الفضل من تجارة وعلموا أن رأس مال إمامهم الخسارة التهوا بالسهو ، وسهوا باللهو ، وانفضوا عنه وتركوه ، وهذا إن لم يكونوا سفكوه وسكبوه ، كما فعل صاحب البستان بالمزرعة من الغدر والتفخيذ مع غرمائه الأربعة ؛ فسأل الوزرا عن غدير ذلك الغدر كيف جرى .

[٢٥] **قال العفريت** : كان من تكريت[5] رجل مسكين ينظر البساتين، ففى بعض السنين قدم قرية منين[6] ، وسكن فى بستان كأنه قطعة من الجنان فاكهة ونخل ورمان . ففى بعض الأعوام أقبلت الفواكه بالإنعام ، ونثرت

(١) الخطام : حبل يربط به البعير ليقاد به .
(٢) الخزام : حلقة يشد فيها الحبل الذى يجر به البعير .
(٣) مزدحمة .
(٤) أحباب .
(٥) تكريت : مدينة فى العراق على شاطئ دجلة . معجم البلدان (٢٥٦٠) .
(٦) منين : قرية قريبة من نهر دجلة . معجم البلدان (١١٦٧٠) .

للثمار ملابس الأشجار من الأذيال والأكمام ، فألجأت الضرورة ذلك الإنسان أن خرج من البستان ، ثم رجع فى الحال فرأى فيه أربعة رجال أحدهم جندى، والآخر شريف[١] ، والثالث فقيه ، والرابع تاجر ظريف ، قد أكلوا وسقوا وناموا واتفقوا وتصرفوا فى ذاك تصرف الملاك ، وأفسدوا فسادا فاحشا خادشا ومارشا[٢] وناوشا وناكشا ، فأضر ذلك بحاله ورأى العجز فى أفعاله ، إذ هو وحيد وهم أربعة وكل عتيد ، فسارع إلى التأخيذ وعزم على التفخيذ[٣]، فابتدأ بالترحيب والبشاشة والإكرام والهشاشة ، وأحضر لهم من أطايب الفاكهة ، وطايبهم بالمفاكهة ، وسامح بالممازحة ومازح بالمسامحة إلى أن اطمأنوا واستكانوا واستكنوا ، ودخلوا فى اللعب ولاعبوه بما يحب . فقال فى أثناء الكلام : أيها السادة الكرام لقد حزتم أطراف المعارف ، والطُّرَف[٤]، فأى شيء تعانون من الحِرَف ؟ فقال أحدهم : أنا جندى . وقال الآخر : وأنا رسول الله جدى . وقال الثالث أنا فقيه . وقال الرابع : أنا تاجر نبيه .

فقال : والله لست بنبيه ولكن تاجر سفيه وقبيح الشكل كريه ، أما الجندى فإنه مالك رقابنا وحارس حجابنا ، يحفظ بصولته ويصون أنفسنا وأموالنا وأولادنا بسيف دولته ، ويجعل نفسه لنا وقاية ، وينكى فى أعدائنا أشد نكاية ، فلو مد يده إلى كل منا ورزقه فهو بعض استحقاقه ودون حقه ، وأما الشريف فإن جده هدانا ، ومن النار أنجانا وقد ملكنا كرامة وحبا لقوله تعالى ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى :٢٣] وقد تشرف به اليوم مكانى ، وحلت به البركة علىَّ وعلى بستانى ، وأما سيدنا العالِم فهو مرشد العالَم وهو سراج ديننا الهادى إلى يقيننا ، فإذا شرفونا بإقدامهم ورضوا أن نكون من خدامهم ؛ فلهم الفضل علينا والمنة الواصلة إلينا ، وما أنت يا

(١) الشريف : فى الغالب من ينتسب إلى النبى ﷺ .
(٢) المرش : الخدش والحك بأطراف الأصابع .
(٣) التفخيذ : التفريق .
(٤) الطرائف من العلوم .

رابعهم وشر جان تابعهم ، بأى طريق تدخل إلى بستانى وتتناول سفرجلى ورمانى ، هل بايعتنى بمسامحة وتركت لى المرابحة ، أولك على دين ، أو عاملتنى نسيئة[1] دون عين ، ألك على جميلة ، وهل بينى وبينك وسيلة تقتضى تناول مالى والهجوم على ملكى ومنالى ، ثم مد يده إليه فلم يعترض من رفقائه أحد عليه ؛ لأنه أرضاهم بالكلام واعتذر عما يتطرق إليه من ملام، فأوثقه وثاقا محكما وتركه مغرما ، ثم مكث ساعة وهو على الخلاعة مع الجماعة وغامز الجندى والشريف على الفقيه الظريف .

فقال : يا أيها العالم الفقيه والفاضل النبيه ، أنت مفتى المسلمين وعالم بمنهاج الدين ، على فتواك مدار الإسلام وكلمتك الفارقة بين الحلال والحرام، بفتواك تستباح الدماء والفروج ، فمن أفتاك بالدخول فى هذا والخروج ، أفتنى يا عالم الزمان ، محمد بن إدريس[2] أفتاك بهذا ، أم النعمان[3] ، أم أحمد بن حنبل[4] ، أم مالك[5] فسمح لك بذلك ، أما سمعت قول العلماء مُعِزٌ ومجلها

---

(١) أحد البيوع المحرمة ، وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، فيقول الدائن للمدين عند حلول الأجل أتقضى أم تربى .

(٢) محمد بن إدريس : هو الإمام الشافعى ، عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علماً ، ولد فى غزة ونشأ فى مكة ، وعاش وتوفى فى مصر وهو تلميذ الإمام مالك بن أنس، وإمام المذهب الشافعى ، من سنبه (الأم) و (الرسالة) توفى عام (٢٠٤هـ) . سير أعلام النبلاء (١٥٥٦) .

(٣) النعمان : الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، إمام المذهب الحنفى ومفتى الكوفة ولد بها وتوفى فى بغداد عام (١٥٠هـ) ومن كتبه (المسند) و (الفقه الأكبر) . سير أعلام النبلاء (٣٦٣١) .

(٤) أحمد بن حنبل : إمام أهل السنة ، وإمام المذهب الحنبلى ، ولد فى بغداد ، وقاوم المعتزلة فى قضية خلق القرآن ، وعذب طويلا بسبب ذلك فيما عرف بالمحنة وأشهر آثاره (المسند) وتوفى عام (٢٤١هـ) . سير أعلام النبلاء (١٩٠٠) .

(٥) مالك : الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، وإمام المذهب المالكى وشيخ الإمام الشافعى ، ولد بالمدينة وتوفى بها عام (١٧٩هـ) وأهم آثاره (الموطأ) فى الحديث . سير أعلام النبلاء (١١٩٣) .

ومذل الجهلاء لجهلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] . وإذا ارتكب مثلك هذا المحظور، وتعاطى العلماء والمفتون أقبح الأمور فلا عتب على الأجناد والأشراف ، ولا على الجهلاء الأجلاف[١] ، ثم مد يده إلى جلابيبه وأوثقه بتلابيبه[٢] فأحكمه وثاقا وألمه رباقا[٣] ، فاستنجد بصاحبيه إلى جانبيه فما أنجداه ولا رفداه ، ثم جلس يلاهى الجندى الساهى وغامزه على الشريف ذى النسب الظريف .

ثم قال : أيها السيد الأصيل النجيب الجيد الحسيب لا تعتب على كلامى ولا تستثقل ملامى ، أما الأمير فإنه رجل كبير ذو قدر خطير له الجميلة التامة والفضيلة اللامة ، وأنت يا ذا النسب الطاهر والأصل الباهر والفضل الزاهر سلفك الطيب أذن لك فى الدخول إلى مالا يحل لك ، أم جدك الرسول أفتاك باستباحة الأموال ، أم زوج البتول أنبأك أن أموالنا لآل البيت حلال ، وإذا كنت يا طاهر الأسلاف لا تتبع سنة آبائك الأشراف من الزهد والعفاف فلا عتب على الأوباش والأطراف ، ثم وثب إليه وكتف يديه ، ولم يعطف الجندى عليه ، ولم يبق إلا الجندى وهو وحيد فانتصف منه البستانى كما يريد، وأوثقه رباطا وزاد لنفسه احتياطا ، ثم أوجعهم ضربا وأشبعهم لعناً وسباً ، وجمع عليهم الجيران ، واستعان بالجَلاوذة[٤] وأصحاب الديوان ، وحملهم برباطهم وعَمَّتَهُم تحت آباطهم إلى باب الوالى وأخذ منهم ثمن ما أخذوه من رخيص وغالى .

---

(١) الأجلاف ، مفردها جلف : الغليظ الخلق .

(٢) تلابيب ، مفردها تلبيب : مافى موضع اللب من الثياب ويعرف بالطوق ، ويقال : أخذ بتلابيبه أى أمسكه متمكنا منه .

(٣) الربق : الحبل الشديد المعقود .

(٤) الخدم .

وإنما أوردت ما جرى ؛ لتعلموا أيها الوزرا ، أن التفخيذ بين الأعداء بالتأخيذ أمر من السهام فى تنفيذ الأحكام وإحكام التنفيذ ، وهذا قبيل تعاطى أسباب البيلسة[١] ، وفتح أبواب الوسوسة ، فإنه يقال فى الأمثال : عقدة تنحل باللسان لا يؤخر حلها إلى الأسنان . ونعم ما أرشد من أنشد :

فكَـمْ عُقْـدةٌ أغْنَى اللسانُ بِحَلِهَـا تَرَاختْ وَقَد أعْيَتْ نَوَاجذ أسْنَان[٢]

ثم قال العفريت للوزير الرابع : ما ترى فى هذا الأمر الواقع ؟

فقال : حيث تردد الأمر بين آراء مختلفة وأقوال متفاوتة غير مؤتلفة، وأُقيم على كل قتيل برهان ودليل ، فتعدد النقل وتبلد العقل ، وعميت وجوه الترجيح وَدَرَستْ طرق التصحيح ، فلا يمكن القول بأحدها ولا الميل إلى مفردها ؛ فإن ذلك ترجيح بلا مرجح وتصحيح بلا مصحح ، فربما يتصور الشىء خيرا وتكون عقباه شرا ، ويتوهم شرا فتظهر قصاراه خيرا ، وقد قال منزل الفرقان على أشرف جنس الإنسان ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾ [البقرة:٢١٦] . وكم من قضية يتصوّرها الفكر صوابا ويذهل عما تتضمنه من خطا مآبا ، وكذلك النفس تتصور شيئا بصفة وهو بالعكس ، ولذلك شاهد من وقائع الحس فليس على ذلك معوّل وشاهده قضية المضيف مع ولده الأحول . فقال العفريت : وكيف ذلك أيها الخريت[٣] ؟.

[٢٦] **قال الوزير** : أخبرنى شخص فاضل أنه كان رجل كامل ، كريم الشمائل محبوب الخصائل ، مرغوب الفضائل ، غزير الثراء يحب الفقراء ، عذب الموارد مترصد للصادر والوارد ، لا يسأل الضيف من أين ولا كيف ، وهو كما قيل للضيف والسيف ، ورحلة الرجال فى الشتاء والصيف . فنزل فى بعض الأيام ضيف من أصحابه الكرام فزاد فى إكرامه وأحضر ما طاب من طعامه .

---

(١) الفتن والشر .
(٢) نواجذ الأسنان : القوية منها .
(٣) الدليل الماهر العارف .

فلما رفع السماط[1] ووضع للبسط بساط ، قال لضيفه الصديق : عندنا قارورة من الشراب العتيق كنت ادخرته لنزلك وأعددته لمثلك ، وما عندى سواها فإن رأيت أحضرناها وتعاطينا الراح لطلب الانشراح ، فإنها مادة الأفراح كما قيل :

وَمَا بَقِيتْ مِنَ اللذَاتِ إلاّ أَحَادِيثُ الكِرَام عَلَى المُدَام

فسمع الضيف مقالهُ ، وتحمل جميلهُ ودعا له وأجاب سؤله ، فأشار المضيف المفضل إلى ولده الأحول ، وقال : اذهب إلى المقصورة فإن هناك قارورة وإياك أن تتكسر فإن صدع الزجاج لا ينجبر ، وما بناضيرها ولكن ما عندنا غيرها ، فتوجه إلى ذلك المكان فتراءى له قارورتان ، فرجع من وقته ونادى لمقته أيها الأب المفيد هناك قارورتان فأيهما تريد فخجل من ضيفه وغضب لئلا ينسب إلى اللؤم والكذب . فقال لابنه : يا ابن البظرا[2] اكسر إحداهما وهات الأخرى . فأخذ العصا وعبر وضرب أحدما كان تراءى للبصر ، فلم يكن غير وعاء واحد وقد انكسر ، فخرج إلى أبيه وهو من الفكر فى تيه ، وقال : امتثلت ما أمرت وأخذت العصا وضربت فانكسرت إحدى القارورتين ، ولا أدرى الأخرى ذهبت إلى أين فقال : يا بنى إن الخطأ منك وإليك والخطأ فى ذلك كان من نظر عينيك .

وإنما أوردت هذا المقول ؛ لتعلم أيها الغول المهول إن أقوى طرق العلم العين ، وإذا حصل فى إدراكها الخلل والشين تراءى الصدق بصورة المين ، والشىء الواحد بشكل اثنين وهذا أمر محسوس لا تنكره النفوس ، فكيف ترى تكون عين الفكر المصوّن ، وهى بأنواع الحجب محجوبة وبتخيلات الوهم وقضاياه مشوبة ، ومرآتها إنما هى المعانى دون المحسوسة المشاهدة المبانى .

---

(١) ما يبسط ليوضع عليه الطعام .

(٢) البظر : هو موطن الحس الجنسى عند المرأة . وبظراء صيغة مبالغة ، أى كثيرة الجماع .

فعلى هذا ينبغى التأمل فى عقبى هذه الحوادث والتدبر فى قصارى هذه الأمور الكوارث ، ثم الأخذ فى تعاطيها والشروع فى أسباب تلافيها ، إنما يكون بعد إمعان الأنظار وإنعام التدبر والأفكار .

ثم اعلم أيها الرئيس الداهى النفيس ، شيخ المكر والتلبيس والبياسة والتدليس ، إن الله القديم القادر الحكيم لم يخلق فى الموجودات ولم يوجد فى المخلوقات أعز جوهرا من الإنسان ، فإنه فضله على جنسى المَلَك والجان واختصه ، بدقيق النظر ، وعميق الفكر ، وسرعة الإدراك ؛ فهو مع عدم الحراك يحكم وهو ساكن على ما تحت الثرى وفوق الأفلاك ، وشمله بعوائده وعوّده بفوائده ، ولطف به فى مصادره وموارده ، فهو أرحم به من والدته المشفقة ووالده ، ووكل بحفظه الكرام الكاتبين وملائكته المقربين ، وربّاه فى حجر نعمته على موائد لطفه وكرمه ورحمته ، كما تربى الوالدة الشفيقة والظئر[1] الرقيقة الرفيقة ، وألهمهم العلم الغزير والقدر الخطير والرأى والتدبير ، وأطلعهم على غامض الأسرار ودقائق الأفكار ، وإن عِلْمِنا بالنسبة إلى علمهم وحلمنا فى القياس إلى ثباتهم ، وحلمهم كنسبة علم الفلاح المغتر إلى علم الطبيب المعبر بحسن النظر . قال العفريت : أخبرنى بذلك يا شيخ المصاليت .

[٢٧] **قال الوزير** : أخبرنى شيخ كبير أنه رأى فى منامه فلاح كأنه خرج من بطنه مفتاح ، فلما أصبح الصباح جاء إلى رجل من أهل الصلاح يعبر المنامات ، وكان ذا كرامات فقص عليه رؤياه وطلب منه تعبير ما رآه ، فقال له : يا رئيس هذا منام نفيس لا أذكر ما فيه من تعبير إلا بدينار كبير ، فحصل له بشارة ، فناوله دينار ه ، فقال : يولد لك ولد ذكر يكون سببا للفتوح

---

(١) الناقة الشفيقة بولدها .

والظفر ، وكان له زوجة حامل بقى لها أيام قلائل فولدت أيمن غلام بعد ثلاثة أيام ، فاستبشر الفلاح بالظفر والنجاح . ثم بعد مدة حصل للفلاح شدة من مرض آلمه وأصاب قدمه فجاء إلى معبر المنام وشكا إليه الآلام وقال : ألمى فى قدمى ضاعف همى وأضعف هِمَمى ، فقال له الطبيب : لا بأس يا حبيب هذا داء هين وعلاجه بيِّن ، أعطنى دينارا ثانيا أصف لك دواء شافيا ، فأعطاه ما اشتهى واستوصفه الدوا ، فقال : ضمده بعجة بيض كثيرة الأبزار[1] وضع عليه عسلا مسخنا على النار ففعل ذلك فبرئت قدمه ، وزال بالكلية ألمه .

ففكر الفلاح فى فعل المعبر الطبيب ، وقوله المصيب وأمره العجيب ، فإنه بأدنى عبارة عَبَّرَ المنام وبأوهى إشارة أزال الآلام ، فرأى الراحة فى ترك الفلاحة ، والاشتغال بعلم الطب والتعبير فإنه أمر هين يسير ، وبأدنى أمر حقير يحصل المال الكثير ، فباع آلات الزراعة وعزم على تعاطى مافى الطب والتعبير من صناعة ، وجمع كتبا ودفاتر وكراريس مخرمة مناثر، ووسَّع أكمامه ووضع على رأسه عمامة كغمامة ، وجمع عقاقير وأوراق وبسط بسطه فى بعض الأسواق ، وأشار على لسان مخبر أن المكان الفلانى فيه طبيب معبر ، وهو أستاذ الزمان وعلامة الأوان وتلامذته فى الطب حكماء اليونان ، وفى التعبير ابن سيرين[2] ، وكرمان ، وتصدر كأبى زيد[3]، وساسان[4] ، عاملا بما قاله شيخ البيان وهو :

---

(١) توابل الطعام .

(٢) محمد بن سيرين ، أبو بكر أحد الأعلام ، فقيه البصرة ، اشتهر بتفسير الأحلام ، توفى سنة (١١٠ هـ) . تهذيب الكمال (٢٤٥/١٦) .

(٣) أبو زيد الأنصارى ، سعيد بن أوس ، نحوى ولغوى من أهل البصرة ، أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، من آثاره كتاب النوادر ، توفى فى القرن الثالث الهجرى .

(٤) ساسان : كبير كهنة الإله أنا هيتا إله الفرس القدماء .

الطبُ أهْوَنُ عِلْم يُستَفَادُ فطر ... بَيْنَ الأنام بهِ طَيْر الزَنَابيْر
واجْمَع لِذَاكَ كراريْسَاً مُنَثرة ... وَجُملةٍ مِنْ حشيش مِنْ عَقَاقِير
وَضَع على الرأس بقياراً تدوّره ... كقبة النِسْر فِي وزن القَنَاطير (١)
وَاجمَع معاجين من رب تخلطها ... واسحق سفوفاً وأكحال العواوير (٢)
وسم ما شِئْتَ مِنْ أسْمَاء مغربةٍ ... كَالسِنْدِ وَالهنْدِ والسَرَحا وخَنْفور
وقُلْ مِنَ الهنْدِ جا هذا ومِن عِدن ... هذا وهذا أتَى من مَلكِ فغفور
وذا مِنَ البَحْر بَحْر الصين مَعْدَنه ... وذا من البربر المَدْعُو بِبَرْبُور
فَإنْ رَأيتَ بالاستسقَاء ذَا ورم ... فَقُلْ تَورَمَ مِنْ لَسع الزَنَابير
إنْ اقْشَعَرَ فَقُلْ برد عَراهُ وَإنْ ... يحم قُلْ حره وهج التنانير (٣)
وإنْ أتَاكَ مَرِيْضٌ لا تَخَفْ وَأشِر ... بمَا تَرَى مِن دَوَاء دُونَه البورى
فَإن يَعِشْ قُلْ دَوَائى كَان مُنْعِشِه ... وإنْ يَمتْ قُلْ أتَاهُ حكم مقدور
كذلك الرَمْلُ وَالتَنْجيم خُذْهُ على ... هَذَا المِثَال وَخُض فِي عِلْم تعبير
فَإنْ أصبتَ فَقُلْ عِلْمِي وَمَعْرفَتِي ... وَفِي التَخَالف قُلْ ضدَ المقادير
وإنْ رأيتَ فقيهاً فِرَّ مِنْهُ وَلاَ ... تَنْطق يُخْطئكَ فِي فِسْق وَتكفير
وَأنْتَ تَحْتَاجُ فِي هَذَا وذاك إلَى ... ذَرْقٍ وَمَعْرِفَةٍ مَعَ حُسن تَدْبِيرِ (٤)

فاتفق أن زمام (٥) خليفة الأنام رأى فى المنام شيئاً هاله وغير حاله، فحصل له فى رأسه صداع وفى فؤاده أوجاع ، فسمع بهذا الربع (٦) الجديد، وإنه أستاذ مفيد فأرسل إليه وعرض ما رآه عليه . فقال : هذا منام يدل على

---

(١) البقيار : العمامة .
(٢) السفوف : الحبوب المطحونة كالدواء .
(٣) التنانير ، مفردها تنور : الفرن .
(٤) الذرق : المهارة والحزق .
(٥) زمام الخليفة : وزيره .
(٦) الربَع : الرجل ما بين الطول والقصر .

خير وإنعام وبقاء ذكر الزمام على الدهر والأعوام ، ولكن لا أعبر هذه الأحلام إلا بدينار تمام ، فناوله دينارا وأظهر لذلك استبشارا ، فقال له : يولد لك غلام بعد ثلاثة أيام ، فضحك الزمام من هذا الكلام وقال : يا إمام أنا رئيس الخدام ، طواشى[1] بلاشى لا زوجة ولا سرية ، ولا آلة ولا شهية ، فمن أين لى هذه السعادة ولا فرحت بحسن الحسنى فأنّى تحصل هذه الزيادة، فلا تسخر منى وكف كلامك عنى وأخبرنى بتعبير هذا المنام ودع عنك الملام، فقال : حقا؟ أقول ، وأنا جربت هذا المقول ، وقد عبرت لك هذا التعبير ولا ينبئك مثل خبير .

فقال الزمام : يا أخى دع هذا المقال ، فإن وجود الولد منى محال ، وأنا رجل بى وجع وما بقى فى منتجع ، فقال ماذا تشكو وألمك فى أى مكان هو؟ فقال : فى فؤادى أوجاع وفى رأسى صداع . فقال : يا زين من فاخر أعطنى دينارا آخر أصف لك أيسر دواء ، يحصل لك منه العافية والشفاء ، فدفع إليه الدينار وطلب منه دواء الدوّار وما بفؤاده من ألم أورثه الوهج والضرم . فقال: يا أبا الفيض ضمد رجلك بعجة بيض مضافا إليها عسل مشتار ، وليكن ذلك مسخنا بالنار ، فاستشاط الطواشى غضبا ، وفار كالنار شواظا ولهبا ، وعرف أنه جاهل وعن طرق العلم غافل فأدبه التأديب البالغ ورده إلى ما كان عليه من منادمة السالغ[2] واستمر على كلاحته بعد رجوعه إلى فلاحته .

وإنما أوردت هذا المثال يا غول الأغوال ؛ لتعلم أننا إذا اشتغلنا بمناظرتهم اشتظنا[3] فى محاورتهم ؛ لأنه فى دقيق الأسرار وعميق الأفكار وتحقيق الأنظار لا يقاوم أحد جنس الإنسان ، فكيف يستطيع الجان معارضة من أيده الله تعالى برفيع المعانى وبديع البيان فإذا قابلناهم فى المباحث بالمعارضة تعود مسألتنا علينا بالمناقضة.

---

(١) الطواشى : الخصى من الرجال ، يدرب لحماية قصر الحريم .

(٢) البهائم .

(٣) هزمنا واحترقنا .

فلما رأى العفريت خَوْرَ ذلك الصفريت[1] ، وإنه نكل[2] عن المقاومة، ونكص[3] عن المصادمة ، خاف أن تكون آراء الوزراء تبعا لرأيه فى عدم لقائه وظنهم مستحسنين لدهائه مستصوبين لآرائه ، فأرخى عنان الكلام ليقف على ما عندهم من مرام ، وكان عزمه المباحثة والمعابثة والمباعثة والتصدى للإقدام ، وإلقاء المسائل بحضرة الخاص والعام ، لكن مشى مع إمام الوزراء ليرى ماهم عليه من الآراء .

فقال للوزير : نعم ما قلت أيها الوزير والرأى ما أشرت من الرأى والتدبير ، فإن الله تعالى خلقنا من النار ، وطبعها الإهلاك والدمار ، وإحراق كل رطب ويابس وبارد وحار والظلم والخسار ، والإفناء والجهل والبوار وطلب الرفعة وعدم القرار ، وإفساد ما تجده من غير فرق بين نفاع وضرار، وخلقهم من تراب وإليه الإياب ، وطبعه الحلم والسكون والترابية والركون ، والعلم والعدل والإحسان والفضل ، ومع هذا فلو خرجوا عن مادة ما جبلوا عليه وتلبسوا بغير ما نُدِبوا إليه ولو أدنى الخروج ، ورعوا ما للمارج من مروج ؛ لتحكمنا فيهم كما نختار وللعبنا بهم كما يلعب بالكرة الصغار ، ونحن إذا خرجنا عن دائرة طبعنا ، وتخالفت أوصاف أصلنا وفرعنا ، ونقلنا إلى دائرة الخير عن جادة الشر أقدام صنعنا لا يقع لنا منهم صيد ، ولا يؤثر لنا فيهم سيف كيد ، فإذ عجزنا عن الإيذاء فى الظاهر لم يبق إلا الإغواء من باطن الضمائر ، والتعلق بأسباب ما نصل إليه من الحيل البواطن والظواهر.

فقد قال الحكماء وأهل التجارب ومن ابتلى من مكايد الدهر بالنوائب ومُنِىَ من ذلك بالعجائب والغرائب : إذا تصدى الإنسان وقصد غريمه وعجز

---

(١) الجبان .
(٢) خاف وتراجع .
(٣) تراجع وفر هارباً .

عن مقاومته فى الحكومة والخصومة ، فعليه بهدم ذلك الجبل بمغناطيس الخداع ومعاويل الحيل ، ويستعين فى ذلك بأهل النجدة وذوى البطش الشديد والشدة ، فيتوصل بهم إلى حسم ذلك الداء ولو كانوا أعداء غير أوِدَّاء ، فتسليط بعض الأعداء على بعض من أيمن سُنَّة بل من أحسن فرض ، ولقد أحسن من قال :

تَفَرَّقَتْ غَنَمى يَوْمَاً فَقُلتُ لَهَا يَا رَبُّ سَلِّط عَلَيْها الذِئْبُ والضَبْعَا

ولا يوجد فى هذا الباب لجمع شمل الأعداء أوثق من تفريق الأحباب ومصداقة قوله تعالى ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة:٤٧] . وما قويت أعضاد الإسلام إلا باجتماع كلمة الأنصار والالتئام ؛ ولهذا قصد من نافقوا لما ترافق الأنصار وتوافقوا أن يتشاققوا ويتفارقوا ، فأنزل عليهم ﴿واعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣] .

وهذا الفن يحتاج إلى فكر عميق ، ومكر دقيق ، وعقل كبير ، وفعل كثير ، ومصيب رأى وتدبير ، وسلوك فى طريق اصطناع ، كما فعلت الفأرة من الخداع . فقال الوزير : ينعم مولانا الباقعة[١] بتحقيق هذه الواقعة .

[٢٨] **فقال** : سمعت أن بعض التجار كان له بستان فى دار ، وإلى جانبه حاصل[٢] فيه المُغْل المتواصل[٣] ، وفى ذلك الحاصل وكر لشاطر[٤] من شطار الفار ، له عدة منافذ وإلى الجهات طرق ومآخذ ، أحدها إلى جهة البستان ، والبستان كأنه جنة رضوان . فكانت الفأرة ذات الشطارة والمهارة تأخذ من الغلات وأطايب الطعامات ما يكفيها غداء وعشاء صيفا وشتاء ،

---

(١) الداهية شديد الذكاء .

(٢) الحى به مجتمع من الناس .

(٣) المغل المتواصل : جيل بعد جيل .

(٤) لص قاطع طريق .

وفى وقت المصيف تخرج من ذلك المنزل اللطيف إلى جهة البستان فتتمشى بين الغدران ، وتترقى إلى أعلى الأغصان وتتمرغ فى المروج والرياض، وتتبختر فى ظلال الدوح والغياض ، ثم تعود إلى وكرها وتأرز[1] إلى جحرها ، وكان عيشها هنيا وأمرها رضيا ومضى على ذلك دهرها وانقضى فى أرغد غيش أمرها . ففى بعض الأحيان خرجت على العادة للتنزه فى البستان فمر بسكنها أفعوان[2] فرأى مكانا مكينا وسكنا حصينا بالأطعمة محفوفا وبطيب الأغذية مكنوفا ، فدخله واستوطنه وترك ما سواه من الأمكنة.

فلما رجعت الفأرة إلى مكانها المألوف وجدت به العدو الظالم العسوف[3] فأحاط بها من الأمر ما يحصل من الذئب إذا عانق الخروف ، فأسرعت إلى أمها وشكت إليها نوائب غمها وما دهمها من نوازل همها .

فقالت أمها : لا شك أنك ظلمت أحدا ، أو وضعت على ما ليس لك يدا أو تعديت الحدود ، أو عاملت مغرما بالصدود ، فجوزيت بإخراجك من وطنك وإبعادك عن مقرك وسكنك ، ومن ظلم ضعيفا عاجزا سلط الله عليه قويا لاكزا[4] ، وقد رأيت يا أُنْسِى فى حديث قدسى : ((اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى))[5]. فلا تطيلى الكلام ولا تتصورى أنك ترجعين إلى مالك من مقام ، ولا طاقة لك على مقاومة الثعبان ، فدعى تعب الخاطر واطلبى لك مأوى غير هذا المكان . فتوجهت إلى ملك الفأر والجرذان وشكت ما بها من ذلك الشيطان ، وقالت : أنا فى خدمتك ومعدودة من رعيتك

---

(١) ترجع وتعود .

(٢) ثعبان كبير شديد السم .

(٣) الطاغية .

(٤) ضارباً

(٥) حديث قدسى ذكره المتقى الهندى فى كتابه كنز العمال (٧٦٠٥) وعزاه للديلمى فى مسند الفردوس عن على ﷺ .

عمرى على ذلك مضى وزمانى فى إخلاص العبودية انقضى ، وأبى كان فى خدمة أبيك وجدى عبد جدك وذويك ، لم نزل فى رِقِّ الطاعة متمسكين بحبل سنة الولاء مع الجماعة ، كل ذلك لأمر يَدْهُم أو نازلة تَقْدِم ، فنستدفع ذلك الخطب بخطابكم ، ونستكفى هول ذلك النازل بجنابكم . والآن لقد وقعت حادثة بالباب عابثة وبالأفكار عائثة ، وللأرواح كارثة ؛ وذلك أنى خرجت من مسكنى لطلب قوتى ثم رجعت إلى مبيتى فوجدت ظالما قد استحوذ عليه ، وغاصبا قد دخل إليه وهو ثعبان مالى به يدان ، وقد ترامیت على جِنَابِك أستدفع هذا البلاء بك .

فقال ملك الفأر : يا سائبة الأشفار[1] من ترك ماله سائبا فقد جعله ذاهبا، وقال ذوو الاعتبار وأولو الأبصار : ينبغى بل يجب على الدزدار[2] ، وحافظ القلعة والحصار أن تكون رجله ذات عرج وانكسار ؛ لئلا يكون دينار وجوده خارج الدار . وأنت أيتها الفارة فرطت فى أمرك والمفرط أولى بالخسارة ، وقد خاب منك المسعى لأنهم قالوا : أظلم من أفعى . ومن ظُلم الأفعوان أنه لا يكد نفسه فى حفر مكان وتهيئة مبان ومغان ، ولكنه حيث وجد مسكنا اتخذه لنفسه مقاما ووطنا ، وهذا قد عرف مكانك النزه وهو جبار شره فلا يزايله ولا يقابله ومن أين يلتقى مثل هذا المأوى وفى المثل: عرف الكلب بيت العميا . فالأولى أن ترتادى لك موضعا فتتخذيه مقاما ومرتعا .

فقالت الفارة : وقد تأثرت لهذه العبارة ، يا أيها السلطان وملك الفار والجرذان ، فما فائدة خدمتى وانقياد أبى وطاعة جدى الكبير الأبى ، وإذا كنتم فى الدنيا لا تنفعوننا وفى الآخرة لا تشفعون لنا ، ولا تدفعون فى الأولى صدمات الدواهى والبلا ، ولا تحمون الأوداء عن مواطئ أقدام الأعداء ،

---

(١) الشفر : حرف الفرج للمرأة ، وسائبة الأشفار ، سباب بمعنى الفاعلة أو الزانية .
(٢) حارس الباب .

ولا تدفعون فى الأخرى نوائب الطامة الكبرى ، ولا تحلونا بمالكم من الاستيلاء غرف الدرجات العلى ، فأى فائدة لكم علينا ونعمة منكم تسدى إلينا وهل أنتم إلا كما قيل فى الأقاويل :

إذا لَمْ يَكُن لِى مِنْكَ عِزّ وَلاَ هِنى ... وَلاَ عِنْدما يَغْتَالنِى الدَّهْرُ مَوْئِلُ[1]

فكُلّ التِفَاتٍ لِى إلَيْك تكرمٌ ... وَكُلّ سَلاَمٍ لى عَلَيْكَ تَفَضُل

فقال له ملك الفار : يا قليلة الاستبصار ، العديمة العقل والافتكار ، إذا اجتهدنا فى ردك إلى مكانك وكنا على الثعبان كجندك وأعوانك ، فهل تَشْكّين يا مسكينة وبنت مسكين فى أن الأفعى تتوجه إلى سلطانها وتخبره بشأنها وأنها أخرجت من مكانها وتستنصر بأعوانه وتنتصر على سلطاننا بقوة سلطانه ، وتستجيش وتستغيث وتغرى علينا ذلك الخبيث ، كما فعل الرافضى العادى العلقمى البغدادى[2] ؛ حين دعا التتار الطغام[3] لخراب مدينة السلام[4]، ومن بعده الذميم نابذة الإمام وقصد دمار ديار الشام ، ولا طاقة لنا بعساكر الحيات ، ونحن فى أحيائهم كعساكر الأموات فتذهب الأموال والأرواح وتتعب القلوب والأشباح ، ومع هذا الأمر المعلوم حصول القصد والظفر موهوم ، فبالله اتركينى واذهبى واطلبى لك مسكنا غيره ولا تتعبى .

فقالت : هذا منزلى القديم وميراثى عن سلفى الكريم ، وأين أذهب وفيمن أرغب إن لم تغثنى هلكت وانذهلت وانسلبت . فقال : لا تطيلى القول ، فلا قوة لنا ولا حول . فلما أيست الفارة المكارة الغدارة ؛ تركت سلطانها

---

(١) المونل : الملجأ .

(٢) مؤيد الدين محمد بن العلقمى ، وزير آخر خلفاء الدولة العباسية الأولى (المستعصم بالله) ، أحد عملاء قائد التتار (هولاكو) وأحد أسباب سقوط دولة الخلافة فى بغداد . سير أعلام النبلاء (٥٩٨٣) .

(٣) الأوغاد الأوباش .

(٤) مدينة السلام : مدينة بغداد . معجم البلدان (٦٥١٦) .

وذهبت وسلكت طريقها وانقلبت وأنشدت فأرشدت :

أَبْعَيـنَ مُفْتَقَـرٌ إِلَيْـكِ نَظْرتنـى فَحَقَرَتْنِـى وقَذَفْتَنِـى مِـن خـالِقِ
لسـتَ الملـومَ أنا الملومَ لأننّى أَنْزَلْـتَ أَمَالـى بِغَيْرِ الخَالِـقِ

ثم غاصت فى بحر الفكر ، وتشبثت بأذيال المكر ، واستعرضت على مرآة أفكارها وجوه الحيل واستورت من زناد آرائها شرر النظر فى الجدل ، وأخذت تطوف فى أكناف البستان ، فعثرت فى طوافها على ذلك الأفعوان نائما تحت وردة متطوقا فى أهنى رقدة ، فرقت غصنا من الأغصان ، فلاح لها الباغيان قد سقى البستان وهو تعبان متكئا فى الرياض على مسكبه ربحان، فاغتنمت الفرصة ونزلت إليه وقربت منه ودارت حواليه ، ثم وثبت على وجهه وكان نائما فانتهض مرعوبا قائما فذهبت واختفت وبذا القدر اكتفت، فرجع ونام وغرق فى المنام ، فدخلت فى قميصه ورقصت ، فاستيقظ متعجبا منزعجا فرآها فهربت ونكصت ، ثم عاد واتكأ بعد ما غضب وانتكى، فوثبت على وجهه وأدخلت ذنبها فى أنفه ، فنهض مستيقظا مُجِدًا فرآها واقفة لا تتعدى فقصدها فهربت ، ثم رجع فآبت وأتت فنام فى مسنده فقربت منه وعضته فى يده فأنكته وآلمته وأوهجته بما أضرمته ، فطفر من مرقده وأخذ غصنا بيده وقصدها وقد ذاق نكدها ، فهربت غير بعيد ، فرأى وجهها من جديد فتبعها فمشت ثم وقفت وارتعشت تطمعه فى صيدها وهو غافل عن كيدها فتبعها وهى قائدة ، حتى انتهت به إلى الحية الراقدة ، فعندما رأى الثعبان نسى أفعال بنت الجرذان فقتل تلك الأفعى ولم يخب للفأرة مسعى .

وإنما أوردت هذه الحكاية ؛ لتقفوا منها على طريق النكاية ، وليعلم الضعيف إذا كان له أعداء كيف يوقعهم فى مصايد الردى ، وإذا استعمل اللبيب العقل المصيب والفكر النجيب وساعده فى ذلك قضاء وقدر ؛ نال ما أمل ، وأمن ما حذر ، وأفلح أمره ونجح فكره ، وهذا إذا كان الضعيف

مظلوما والقوى ظالما غشوما كما أنتم عليه مما توجهتم إليه من معاداة شيخ الشام المستحق للتبجيل والإكرام والتعظيم والاحترام ، فإنه على الحق وأنتم ظالمون وقاصدا الصدق وأنتم كاذبون ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُاْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**﴾ [الصف:٨] .

فهذا أمر مشكل وداء معضل ، فأنّى تصح أبدانكم وقلوبكم مرضى ، ومن يحبكم وأنتم محسوبون من البغضا ، وكيف تفتفون وأنتم على الباطل، وفى أى ذوق يحلى ما منكم من عاطل وأنا أخاف أى أجلاف أن تسفر هذه القضايا بعد ارتكاب البلايا ، وتحمل المشاق والتعب باقتحام موارد الهلاك والنصب عما هو أشد وأنكى وآحر لعينكم وأبكى ، كما أصاب مضيف العراق من زوجته زبيدة ذات النطاق حين بدا منها الزنبور[١] على حافة التنور[٢] . فقال الوزير للعفريت : أفدنا هذا الصوت يا ذا الصيت .

[٢٩] **قال** : نزل فى بعض الرستاق[٣] من بلاد العراق فقير نحيف على مسكين ضعيف ، وكان بعض أيام الخريف والبرد الشديد يقطع الحديد ، فبعدما طبخوا وتعشوا سجروا النار[٤] ليتدفوا ، فبقى كل من الحضور يتدفأ على جانب التنور ، فقعد الضيف مقابل زوجة المضيف ، فظهر من تحت نطاقها[٥] وجه ذلك الحر الظريف[٦] ، ولاح من تحت السجيف[٧] كأنه قرص أو رغيف ، أو قند عسلى نظيف ، أو خد جندى نتيف ، أو القمر شق نصفين، أو بدر لاح من تحت ذيل حُنين .

---

(١) فرج المرأة .
(٢) الفرن .
(٣) القرية وما يحيط بها الأرض .
(٤) أوقدوها وأشعلوها .
(٥) شِقّة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض .
(٦) أى فرج المرأة .
(٧) الستر والحجاب .

فلما أحس بحرارة النار وظهر على وجهه الاحمرار ؛ صار يتلمظ[1] ويتحلى ولسانه من الحر والدفء تدلى ، فلمحه الضيف وهو يتثاءب فتمطى قائم رمحه ونحوه قام وتصاوب ، وقد قيل الأقاويل : عضوان متعاونان وهما اليدان ، وعضوان مختلفان وهما الرجلان ، وعضوان متتابعان وهما العينان، وعضوان متصاحبان وهما اليد والفم ، وعضوان متباغضان وهما الاست والأنف ، وعضوان متوافقان وهما العين والأير[2].

وكان الضيف يسارقه النظر ويترشف شفاهه بلسان الفكر ، ويود فى مطالعة جبينه لو أتبع العين بالأثر ، وجعل يتغنى ويترنم ويهيم بما يتكلم :

لَيْس فِى العَاشِقِيـــنَ أَقْنَـــع منِّى أنا أَرْضَـى بِنَظْـرةٍ مِـــنْ بَعِيْدِ

فتنبه إمام هواء الهاجد ، وجعل يقوم ويقع وهو راكع ساجد ، ويسلم على محرابه[3] أحسن التحيات ، ويتشهد رافعا أصبعه بالسلام ، ثم غلبته الحيرة فأخذ يجلد عميرة[4]، فنظر صاحب البيت فرأى الضيف غارقا فى ذيت وذيت ، مشغولا بكيت وكيت متأملا معنى هذا البيت :

وَعِنْـدَ المُلْتَقَى انْكَشَفَ المُغَطَّـى تَثَائَب كِسهـا أُرِىَ تَمْطـــى

فأراد أن ينبه ربة البيدار[5] على هذا العثار لتستر حالها ، وتغطى مالها بطريقة لا يؤبه إليها[6] ولا يقف ضيفها عليها فمد يده إلى سفود[7] وحرك به

(١) يتلمظ شفتيه بلسانه ، علامة على الإثارة .
(٢) القضيب .
(٣) أى فرج المرأة .
(٤) أى يقدح زناد فكره .
(٥) المنزل .
(٦) لا يلتفت .
(٧) عود حديد يشوى عليه اللحم .

النار ذات الوقود ، فعلق من النار به فى الطرف وما شعر بذلك أحد وما عرف ، ثم لعب ساعة بذلك العود وأوصل فى خفية طرفه إلى ذلك الشق المعهود ، لتتيقظ فتتحفظ فشوطها[1] وأحرها وأحرق رأسِ السفود بظرها، فالتأمت وانضبطت ، واحترقت واختبطت وتحركت بزعجة فضرطت ، فزادت فضيحة العين فضيحة الأنف والأذن ، ولم يحصل من تلك الحركة إلا الخجالة والغبن[2] .

وإنما أوردت هذه الحكاية ؛ لتتأملوا فى الغايات والنهايات ، فإن من لا يراقب ما يأتى فى العواقب ما الدهر له بصاحب ، وهذا الرجل الصالح القيم الراجح ؛ ما فاق أقرانه وساد أصحابه وإخوانه ؛ إلا بشىء تقدم به عليهم وتحقق موجب تقدمه لديهم ، وذلك درجات العلم والعمل ، فبذاك ساد الرجل وكمل ، وقال منزل الآيات وخالق البريات ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الذِينَ أَمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُتُواْ العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة:١١] . وقد برع فى أنواع العلوم ، واطلع على حقيقتها من طريقى المنطوق والمفهوم ، وأنتم عن طريقه غافلون ، وعن حقيقة ماهو عليه ذاهلون.

واعلموا إن طريقه واحدة وهى الحق ، وطرقكم متعددة وكلها فسق ، وأتباعه على اتباعه متحالفون ، وأنتم فى طرائقكم القدد[3] متخالفون ، فقد قال الله تعالى فى محكم تنزيله ﴿**وأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وقال بعض أهل الفضل ، وكلامه فى بيان الحق فصل : ما ناظرت ذا فنون إلا غلبته ، وما ناظرنى ذو فن إلا غلبنى . وإنما أخشى إن ناظرت هذا الرجل الكامل الفاضل أن لا أحصل منه على طائل ويظهر فضله قصورى ؛ فينهدم بنيان قصورى .

---

(١) أحرقها .

(٢) الخديعة .

(٣) المتعددة .

فقال الوزراء ؛ بعد أن اتفقت الآراء كلمة واحدة متفقة متعاضدة : نعم ما رأى مولانا الرئيس صاحب التدليس وإسناد التلبيس ، وأنجب أولاد إبليس ونحن أيضا يا باقعة نخشى عاقبة هذه الواقعة ، ولقد جرى مثل هذا المجرى بين بزرجمهر ومخدومه كسرى فى قضية فاق فيها الوزير مخدومه الكبير ، فسأل العفريت وزراءه عن بيان ذلك الشأن كيف كان .

[٣٠] **فقالوا** : بلغنا أيها الخناس الملقى الوسواس فى صدور ؛ الناس أن بزر جمهر الوزير ، وكان ذا علم غزير ورأى وتدبير وبديهة جواب تفحم الكد والتفكير ، وكان حكيم زمانه وعليم أوانه ، وممن فاق فى الفضل والحكم سائر أترابه وأقرانه ، وكان مقربا عند مخدومه يزيد فى كل وقت فى تكريمه وتعظيمه وتوقيره وتفخيمه ، ويصغى إلى نصائحه ، ويعد قربه من أعظم مناجحه ، ويصبر على كلامه الصادع ، ووعظه القارع ، ونصحه الفادع[١] لما فيه من الفوائد والمنافع والحكم والبدائع ، وقد قيل : من أحبك نهاك ومن أبغضك أغواك . فكان الوزير يبادر قبل سائر الخدم فى وظائف الخدم ، ويعجل من الليل والظلم حتى كأنه يوافق النجم أو يسابقه فى الرجم ، ومع ذلك كل يوم يجد مخدومه راقدا فى النوم فيقرعه بالغفلة ، وينقم عليه هذه الفعلة ويعلن بالنداء وينادى فى الملأ فيقول : أفق يا محجوب وتيقظ حتى تظفر بالمطلوب فمن باكر نجح ، ومن غلس[٢] المطلوب أفلح ، ومن تخلف فى النوم سبقه إلى المنزل القوم وفاته المطلوب ولا يدرك المحبوب ، واترك لذة الكرى[٣] فعند الصباح يحمد القوم السرى[٤] ، وكان كسرى يجد لهذا الكلام أنواعا من الآلام ؛ لأنه كان يطيل السهر إلى وقت السحر عاكفا على

---

(١) قوى التأثير .

(٢) أى من بكر إلى مطلوبه من الليل ولم ينتظر إلى الصباح .

(٣) النوم .

(٤) المشى ليلاً .

المدام وسماع الأنغام ومغازلة الغزلان ومعاقرة الندمان ، وإحياء الليل عمر ثان ، فإذا نام واستراح امتد نومه إلى الصباح فلا يوقظه إلا عياط الوزير وصراخ ذلك الصائح النذير .

فلما طال عليه المطال وغلب عليه من ذلك الملال ، أرصد للوزير فى الطريق من منعه عن التبكير بالتعويق ؛ فتصدى له الرصد وأعروا رأسه والجسد وأخذوا قماشه وسلبوا رياشه ، فرجع إلى بيته مكرها ولبس ثيابا غيرها فأبطأ فى ذلك اليوم وتخلف فى الخدمة عن القوم ؛ ولم يجىء إلا وقد استيقظ كسرى من النوم وهو جالس فى صدر الإيوان وحواليه مباشر والديوان ، وسائر الوزراء والأركان وعامة الجند والأعوان ، كل فى مقامه ضابط زمامه ، فأدى بزرجمهر وظائف الخدمة على عادته ، ووقف فى مكانه مع جماعته ، فقال كسرى : مادعا مولانا الوزير فى هذا اليوم المنير إلى التخلف والتأخير وترك التبكير وانشاده بالتبكير قول الشاعر الكبير :

بِكْرًا صَاحِبِى قَبْلَ الهَجِيْرِ إِنَّ ذَاكَ النَجَاحُ فِى التَبْكِيْرِ (١)

فقال : إن الحرامى عارضنى أمامى وقصدنى فى ظلامى ، فأخذ شاشى وسلبنى قماشى ورياشى ، فرجعت إلى كناسى ، وجددت زينتى ولباسى ؛ فهذا سبب تأخيرى وعدم تبكيرى وموجب تخلفى عن وعظى وتذكيرى .

فقال كسرى : ما أفادك التذكير إلا الغرامة فى التبكير ؛ ولولاه ما سلب القماش ولا ذهب الرياش ولا قام الحرامى بالمعاش ، فأين الفلاح فى القيام قبل الصباح ؟ فقال بزرجمهر فى الحال وقد أصاب فى الجواب : ليس ذلك كذلك يا إمامى ، وإنما بكر قبلى الحرامى ولم أباكر أنا بالنسبة إليه ، فرجع فائدة تبكيره منى عليه ، فعجب كسرى من خطابه وسرعة بديهته فى جوابه .

---

(١) الهجير : شدة وقت الظهيرة .

وإنما أوردت هذا القول ؛ بين يدى إمامنا الغول ، أو شيخ المردة المهول ؛ ليعلم أن كسرى وإن كان عالما وفاضلا وحاكما أذعن لكلام وزيره، واتبع رأى مشيره ، وأنصف من نفسه إذ أدرك الوزير بفهمه مالم يدركه هو بحسه .

فاسترسل معهم العفريت فيما هم عليه والتخلف عما ندبهم إليه ، وقال : فبأى الحبائل نصيدهم وبماذا نكيدهم ؟ .

فقال أحد الوزراء : بالنساء فإنهن زمارة المِحَن وطبل الفتن ، والطبل لا يضرب تحت الكساء ، هن أعظم وسائلنا ، وأحكم أوهاقنا[1] وحبائلنا ، وناهيك ما قاله العزيز العليم الذى جبلهن على غير تقويم وفطرهن على الكيد ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨] . وجعل كيدنا بالنسبة إلى كيدهن سخيفا فقال ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء :٧٦] . وقال سيد السادات ورئيس الرؤساء : «ما تركت من بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»[2] . وقال الولى ومن قدره الرفيع على :

إنَّ النِســـاءَ شَياطِينٌ خُلِقْنَ لَنَــا ... نَعُــوذُ باللَّهِ مِنْ شَــر الشَّيَاطِين

وقال من أجاد فى المقال وشنف المسامع بالأقوال حيث قال :

وَمَا حَزَ أَعْنَاق الرِّجَال سوى النسا ... وأى بــلاء جــاء لسـن لــه أهــلا

فَكَمْ نار شر أَحرقَــت كَبدَ الورَى ... وَلَمْ يَكُ إلاَّ مَكرهــنَّ لَهَــا أصــلاً

وإنهن أشراك الإشراك ، وأوهاق الإزهاق ، وأسواق الفساق ، ومصايد المصائب ومراصد النوائب ، وحسبك يا ذا الدهاء مأوى ذلك الحكيم حين سها وأذعن لزوجة الرئيس إذ نبهته على ما عنه لها ، فسأل العفريت عن تلك الحالة وبيان مافيها من المقالة .

---

(١) أوهاق ، مفردها وهق : الحبل الذى تجر به الدابة .

(٢) حديث أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦) .

[٣١] **فقال** : ذكر أن حكيما من العلماء وعالما من الحكماء ؛ أولع بضبط مكر النساء ، وشرع فى تدوينه صباحا ومساءا ، وصار يجول البلدان، ويطالع لذلك كل ديوان ويكتب ما يكون وما كان ، ويحرر من ذلك الأوزان بالمكيال والميزان ، فنزل فى بعض الآناء على حى من الأحياء ، فصادف ذلك التعيس بنت الرئيس ، فتلقته امرأة ظريفة ذات شمائل لطيفة وحركات رشيقة خفيفة ، وقابلته بالترحاب ، وفتحت للدخول الباب فأقبل عليها وترامى لديها ، فأنزلته فى صدر البيت وأخذت معه فى كيت وكيت ، كأنها معرفة قديمة وحديثة كريمة ، وكان زوجها غائبا قد قصد جانبا فشرعت فى نزل الضيف ؛ لئلا تُنسب إلى بخل وحيف[١] ، فأخذ يطالع فى ديوانه ويسرح سوائم[٢] ، طرفه فى ظرف بستانه يشغل أوقاته ، ويتفكر ما فاته ليتعاطى إثباته .

فقالت له ضرة الريم[٣] : ماهذا الكتاب العظيم أيها الفاضل الحكيم ؟

فقال : شىء صنعته وكتاب ألفته ، وهو فى الغربة أنيسى ، وفى الوحدة جليسى . فقالت : يا ذا الحكم والحلم ما فيه من فنون العلم ؟ .

فقال : سر مصون وأمر مخزون ودر مكنون ، لا يجوز إبداؤه ولا يحل إفشاؤه .

فقالت : يا ذا الشكل الظريف ، والوصف اللطيف ، والعلم المنيف هذا التعريف لا يليق بالتصنيف ، فإن فائدة التصنيف الاشتهار ، وثمرة العلم الانتشار ، ودونك ما قاله الكئيب فى مخاطبة الحبيب:

أَذِقْنِى مِنْ رِضَابِكَ يَا حَبِيْبِى فَمَا للشَهْدِ دون الذَوْقِ لَذةٌ

وما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا .

---

(١) الظلم .

(٢) أى يطلق نظراته فى بستانه .

(٣) الغزال .

فقال : الأمر كذلك يا زين الأمور ، ولكن هذا علم يصان عن ربات الخدور[1] . فقالت : إن اللّه الجليل الذات الجميل الصفات ذكر المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وما منع نساء الأنصار الخيرات الأطهار أن يسألن المصطفى المختار عليه أفضل الصلاة والسلام عن غسل المرأة فى الاحتلام[2] ، ولا أن يلجن معه المخاضة فى السؤال عن الحائض والمستحاضة[3] ، فجمع فى ميدان الامتناع وأصر على الممانعة والدفاع ، وقال : يا حَصَان هذا سر يصان ؛ لا سيما عمن فى دينه وعقله نقصان ، فأغراها هذا المقال على الإلحاح فى السؤال وزادت فى اللجاج ، ومارت فى الاحتجاج وترامت لديه ، وأقسمت بدلالة الدال عليه .

فقال : هذا علم لم أسبق إليه ؛ جمعت فيه مكر النساء ومن أجاد منهن ومن أساء ، ومن تعاطت لطائف الحيل وخفى الفعل وخفيف العمل ، ومن دعت بدعاها حتى بلغت مناها ، ومن وقعت فى الشدائد فاحتالت بدقيق فكرها لتلك المكايد وتخلصت من شرك المصايد .

فلما سمعت ما قال ووعت ؛ صكت وجهها وأعربت تفهقها وتمايلت تمايل القضيب[4] ، وقالت : سر غريب وأمر عجيب ، وضيعة عمر حاصل

---

(١) أى ربات العفاف والطهر .

(٢) احتلام المرأة : ورد فيه حديث ، أخرجه البخارى : كتاب الغسل ، باب إذا احتلمت المرأة (٢٨٢) عن أم سلمة أنها قالت جاءت أم سليم امرأة أبى طلحة إلى رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق هل على المرأة ... الحديث)).

(٣) السؤال عن المستحاضة : ورد فيه حديث أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب غسل دم الحيض (٣٠٧) عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : سألت امرأة رسول الله ﷺ فقالت .... الحديث)) .

(٤) الغصن .

فيما لا تحته طائل وشغل سِرٌ وبال فى جمع أمر محال ، لقد ركبت المشاق وكلفت نفسك مالا يطاق ، ونسفت الرمل بالكِرْبال[1] ، وغرفت البحر بالغربال، ووزنت الطور بالمثقال ، وتحملت الدر بالأثقال ، فارجع عن هذا الغلط ولا ترم ذلك الشطط ، فإن مكر ربات الخدور لا يدخل ضبطه بسفر[2] تحت مقدور .

فقال لها : أنت غبية وعن هذا الكلام غنية ، وإن كنت فاضلة ذكية ، أنا قد بلغت فى ذلك الغاية وأحطت به بداية ونهاية ، ووقفت على مجمله ومفصله ، فلم يشذ عنى شىء من آخره وأوّله ، فسلمت وما تكلمت وغالطت وما بالطت وسارت وما مارت ، وفوضت إليه هذا التحقيق ، وسلكت معه غير هذا الطريق ؛ حتى كان هذا الكلام فى هذا المقام شيئاً فريا ونسيا منسيا . ثم نزلت من برج المنازلة ، وأخذت تلك الغزالة فى المغازلة وانتهى بها المقال إلى هذا السؤال .

فقالت: أيها اللبيب الماهر ما معنى قول الشاعر :

يُهَدِدنِى بالرُمْح ظَبى مُهَفهَف ... لَعُوبٍ بألبَابِ البَرِيةِ عَابث[3]
وَلَوْ كَانَ رُمْحاً وَاحداً لاتَقَيْتُهُ ... وَلَكنَه رُمح وَثَان وَثَالث

فالرمح الواحد : قامته والرمح الثانى : ما حوته راحته ، وقل لى يا أبا الحارث ماهو الرمح الثالث ؟ فقال : ذلك النبيه قبل ما يظهر من تثنيه فإن هَزِلِيْنَ أعطافه ، وسرعة انعطافه تراه العينان كأنه رمحان .

وقيل : ما يظهر من ذلك المهفهف عند هزه الرمح المثقف ، فإنه

---

(١) الغربال .
(٢) الكتاب العظيم .
(٣) المهفهف : الضامر البطن الدقيق الحصر .

يتراءى للعين الشكل الواحد اثنين ، ولهذا نظير فى اليوم المطير ، وأحسن مثال عند رشق النبال وفى تدوير المحجن[١] ، وفتل الصولجان عند سرعة الدوران .

وقيل : كان معه رمحان فعده واحدا وهما اثنان ، وعندى يا دمية القصر[٢] أنه ليس المراد الحصر ، وإنما المراد التكثير ياضرة البدر المنير؛ لأن عطفه كلما انهز هزه حصل فى صدر المتيم وخزه ، ورمح قامته ينثنى ويتقصف فتارة يميل وأخرى ينتقف ولطعن العشاق يخطر ويتهفهف ، فالمتيم لا يبرح من قده فى طعنات كما لم يزل من سهام جفنه فى محزات[٣] ووخزات ، وهو من المجاز المرسل ؛ إذ المراد الطعن من ذلك الأسل[٤] وكان قصده أن يسرد الأعداد لا إلى غاية ويبلغ بها إلى مالا نهاية ، فيقول : ثان وثالث ورابع وخامس وسادس وسابع ، فلم تسع القافية يامن هى بوصلها شافية ، ورضابها عافية ، ونظير هذا يا جرة إن تستغفر لهم سبعين مرة وليس المراد الحصر يا رقيقة الخصر ، ويا عين العين فى السبعين حتى لو زاد على هذا العدد لغفر لهم الواحد الصمد بل المراد أنه لا يغفر لهم ولو زاد.

فقالت : يا صاحب البيان وربه ؛ إنما عنى بالرمح الواحد زيه[٥] ، فأفصحت له بالكلام عما لها من مرام ، كأنها ثالثة بنات همام . فخجلت عين الرجل واستحت ، لما أفصحت عن مقصودها وأوضحت .

---

(١) العصا الملتوية الرأس .
(٢) تحفة أو حلية القصر .
(٣) الزجر .
(٤) الرمح .
(٥) فرج الرجل .

فقالت : حبيت وحييت لا تستح واصنع ما شيت فحرَكت بهذا الكلام العابث من الشيخ الحكيم الرمح الثالث ، فمد إليها يد الفاجر العائث ، وذهب لب ذلك الرجل الحازم ، وراودها مراودة العازم الجازم وصارت تلك اللاعة[1] بين الإطماع والمناعة تتثنى وتنقصف ؛ فتارة تتقف وأخرى تتخسف ، وبينما هما فى المجاذبة والمداعبة والمطايبة ، وهى تنزوى وتلين وتصعب وتستكين إذ تراءى لها زوجها من بعيد .

فقالت : جاء زوجى وهو عنيف عنيد ، فسلب القرار وطلب الفرار، ووقع ذلك الحكيم النبيه فى فتنة فيها الحليم سفيه ، ودهمه ما هو أهم مما هو فيه من دواهى العشق ودواعيه ، ونسى العشق والعشيق ، وطلب الخلاص من المضيق وأظهر صورة حاله ما عناه الشاعر فى قاله :

سألتُ مُجَرِبَاً طِبْاً عَلِيْمَاً ... خَبَيرٌ بالوقَائِع مُسْتَعَاذا
وَقُلْتُ : الشهدُ أحلَى أمْ رضَاب ... أمْ النيك الذى للروح حَاذى
فقال : وَحَق رَبِى النَفْسُ أولَى ... إذَا جَرَ الجِزَا هَذَا وَهَذَا

واشتغل الحكيم بنفسه وخاف حلول رمسه ، وكان فى طرف البيت صندوق مقفل عليه ستر مسبل ففتحت له الصندوق ، ورعت له بإخفائه عن زوجها الحقوق[2] . وأمرته بولوجه ؛ ليكفى من زوجها شر خروجه فشكر لها صنعها وامتثل وانسل إلى ذلك اللحد الضيق ودخل فأقفلت عليه أغلاقه ، وأحكمت وثاقه ، ثم تلقت زوجها بالترحاب ودخلت معه فى الأطعمة من كل باب ، وقدمت له ما أكل ، وانسدحت له[3] فركب ووكل .

---

(١) المرأة التى تغازلك ولا تمكنك من نفسها .

(٢) الغيور الشرس .

(٣) استلقت على ظهرها وفرجت بين رجليها .

ثم قالت : أخبرك يا حبيب بوقوع أمر غريب وحادث بديع عجيب وهو أنه قدم حكيم فاضل حليم عالم عظيم ، فأكرمت نزله وبوأت منزله وكان معه كتاب فيه العجب العجاب فسألته عما حوى ؟ فقال : مكر النسا فقلت له : هذا شيء لا يحصى ولا يحصر ولا يجمعه ديوان ولا دفتر ، فلم يسلم إلىَّ ولم يعوِّل علىَّ وذكر أنه أتهاد ولم يَدَع من مكر النسا فنا إلا أودعه إياه ، فما وسعنى إلى أنى غازلته وداعبته وهازلته ، فطمع من لين محاورتى فى حسن مزاورتى ، وطلب منى ذلك العقوق ماهو أعز من بيض الأنوق[1] ، وبينا نحن فى العيش الرغيد وإذا بك أقبلت من بعيد كل ذلك والحكيم يسمع قولها وما تخبر به بعلها .

فلما سمع الزوج هذا الكلام اضطرب وزمجر واصطخب ، وقال : وأين هذا الفاسق الفاجر المنافق والله لأذيقنه كأس التلف ولألحقنَّه بمن سلف ، فلم يبق فى الحكيم مفصل إلا ارتجف ، فقالت : هاهو فى الصندوق مختفى فخذ ثأرك منه واشتفى فنهض وصاح هاتى المفتاح ، فعلم الحكيم أن عمره ذهب وراح ، وكان سبق من زمان بين الزوجين عقد رهان ؛ أنه من فتح منهما الصندوق غلب ، وأقام لصاحبه بما طلب . فلما ذكرت له حكاية الحكيم تذعنه عقد الرهن القديم ، وذهل لشدة الغيرة ووفور الحيرة وتوجه إلى الصندوق فبمجرد ما فتح القفل المغلوق صاحت عليه غلبتك يا معشوق ، فأد ما ثبت لى عليك من الحقوق ، فتذكر عقد المراهنة ولم يشك أن كلامها كان مداهنة ، فضحك بعد ما كان عبس وألقى المفتاح من يده وجلس ، ولعنها ومكرها ولعبها وفكرها ، ثم اصطلحا وانشرحا وزادا نشاطا ومرحا ، ثم خرج فى ضروراته وتوجه إلى حاجاته ، فأقبلت تلك العروس إلى الحكيم

---

(١) الأنوق : العقاب ، وهو يضع بيضه فى أعالى الجبال فيصعب الوصول إليه ، فضرب ذلك مثلاً .

المحبوس وأفرجته من الاعتقال ، وذكرت له هذه المناقلة والانتقال ، وقالت: أيها الحكيم العظيم هل كتبت هذه المناقلة فى كتابك الكريم ، فقال : لا والله الرحمن الرحيم وإنى قد سلمت إليك وتبت إلى الله على يديك .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لأعرض على شيخ السعالى[1] وإمام الأغوال أن النساء فى هذه الحركة أعظم متشبَّث ، وأقوى شبكة ، وهن لسلب اللب من الرجال أضعاف فتنة المسيح الدجال ، خلقهن أعوج وخلقهن أهوج ، ورأيهن غير سديد ، والرجال لهن أذل عبيد ، وإن كن ناقصات عقل ودين[2]، فهن الكاملات فى سلب العقل المتين والفكر الرزين ، وأذهب للب الرجل الحازم والعقل السديد الجازم ، وهل أخرج آدم من جنة المأوى إلا قصة صدمته من قبل حوّا . وما قتل هابيل قابيل إلا بفتنة الزوجة كما قيل ، وكذلك قصة من أوتى الآيات فانسلخ منها وقد عرف كل ذلك أبداء وإنها وغالب من عصى الله وأسا ؛ إنما كان سبب كفره وإخزائه النساء ، فلا تعترضوا على هذا الرأى المتين ولا تتعرضوا لهذا الرجل فإنه على الحق المبين ، ولا تقصدوا لمعارضته وسؤاله ؛ فربما يكون مجالكم أضيق من مجاله وإنا لا نقدر على مناقشته ويظهر جهلنا وعجزنا عند مباحثته .

فقال سائر الوزراء : هذا الرأى أصوب الآراء فإنا إلى الآن ما بارزناهم بالمخاشنة ، وإنما كنا نأتيهم بالمخادعة والمحاسنة ، فنزين لهم الباطل ، ونحلى لهم العاطل ، ونشوه وجه الحق ونسود طلعة الصدق ؛ إلى أن ظهر هذا الرجل ونحن على ذلك، فوقف فى طريقنا وأراهم الدرب السالك، وعلا شأنه ووضح برهانه ونحن على ما نحن عليه من الإغواء وإلقائهم فى

---

(١) الأغوال .

(٢) إشارة إلى حديث النبى ﷺ الذى أخرجه البخارى ، كتاب الحيض ، باب ارك الحائض الصوم (٣٠٤) ولفظه : ((ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب بلب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء)) .

مهاوى الأهواء والحرب بيننا وبينهم سِجَال[1] ، فلو كاشفناهم بسوء الفعال انكشف لهم زيف نقدنا وبطل ما كنا نسوّله بجهدنا ، فإذا ظهر الحق من الباطل وتميز الحالى من العاطل ؛ أخذوا حذرهم وضبطوا أمرهم وداروا بالعداوة ومروا بالملوحة بعد الحلاوة ، ثم ظُفرنا بهم موهوم ، ونصرنا عليهم غير معلوم ، فما نظفر إلا بالندامة ونرضى إذ ذاك بغنيمة السلامة ، ويستمر هذا العار علينا إلى يوم القيامة وقد قيل :

لاَ تَسْعِ فِى الأَمْرِ حتَّى تَستَعِدَ لَهُ سَعْىٌ بِلاَ عِدَّةٍ قَوْس بِلاَ وَتَر

فعند ذلك استشاط العفريت غضبا ، وطار شرارا لهذا الاشتعال ولهبا ، وقال : لقد عظمتم من شأن الإنسان وأوهنتم بل أهنتم جانب إخوانكم الجان ، وضيعتم حقوق الإخوان ، وأبطلتم حكاية السعالى والغيلان ، ونسيتم فتن جدكم الأعلى الباقية ممر الزمان ، ونحن أدق حيلة وأجل جماعة وقبيلة، وأوسع ذكرا ، وأسرع مكرا ، وأقدم وجودا ، وأعظم جنودا وأغزر علما وإدراكا وفهماً ، ولا أرى لكم همة صادقة ولا عزيمة موافقة ، وأنا ما قلت لكم ما تقدم من القول إلا لأخبر مافى فرائض علمكم من الرد والعول ، فلا أقوالكم سديدة ولا أفعالكم رشيدة ، ولقد حل بكم الصغار وسطا بكم من الإنس الصغار ، وأما أنا فلابد لى من المباحثة والمناقشة والمنابثة[2] والإلقاء للمسائل والأبحاث فى الرسائل من غير وسائط ولا وسائل ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، فاعلموا ذلك وتحققوه ، ثم أمعنوا النظر فيه ودققوه وهذا هو الرأى الذى صممت عليه ، فليتوجه كل منكم بقلبه وقالبه إليه، ويقل فى ذلك غثه وثمينه ويلق هجان قوله وهجينه ، ولا يدخر شيئاً من آرائه ، فلابد لى من إلقائه.

---

(١) أى حرب يتبادل فيها الهزيمة والنصر بين كلا الطرفين .

(٢) أى طرح الشىء أمامك أو وراءك .

واعلموا أن الولى الخرار الذى هو إلى جهةٍ جارٍ لو اتفقت الآراء على صرف جريانه إلى جهة أخرى وأن يسد عن هذه الجهة المجرى ، فإنهم لو قصدوا ذلك من أسفل الوادى لسخر منهم الحاضر والبادى ، ولا يتهيأ لفاعله ما يتمناه حتى يسد طريق الماء من أعلاه ، وأنتم إن قصدتم معالى الأمور وإهلاك رؤس الجهور ، ثم تعمدتم الأراذل وتبدلتم الأكابر بالأوغاد والأسافل، فإنكم إذا أغمار[1] وقد ضيعتم فى غير حاصل الأعمار وقد قيل :

إذَا كُنْتَ لابُدَ مُسْتَتربـــاً فمن أعْظَمَ التَل فاستَترب

وما اللجين[2] كالرصاص ، والجروح قصاص ، ولا يكافأ الربيس[3] إلا بالربيس ، ولا يقابل النفيس بالخسيس ، وأى فخر للملوك إذا نازلوا السوقة والصعلوك وقد قيل :

أَلَمْ تَر أَنَّ السَّيْفَ يَذْرِى بِقَدْرِهِ إذا قُلتَ هذا السَّيف أَمْضَى مِنَ العَصَا

وما اكتفى صناديد قريش يوم بدر بدون أكفائهم فى النسب والقدر[4]، وماذا تفيد بيلستكم وتجدى شيطنتكم ووسوستكم ، وأنتم أولو الزعارة[5] وذوو الشطارة والدعارة إذا قهرتم من الإنس وعلاكم أضعف جنس وهم أقصر أعمارا ، ونحن أطول أطوارا لو نزل نصادم الجبال ونقتحم الأهوال ونظهر

---

(١) أغمار ، مفردها غمر : الصغير قليل الشأن .

(٢) الفضة .

(٣) الشجاع الداهية .

(٤) وذلك على ما جاء فى غزوة بدر الكبرى لما تواجه الفئتان وتقابل الفريقان ، قال ابن كثير : فلما توسطوا بين الصفين دعوا إلى البراز فخرج إليهم فتية من الأنصار ، فقال صناديد قريش مالنا بكم من حاجة ، يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . [البداية والنهاية ٢/٢٧٢] .

(٥) سوء الخلق .

كما شئنا فى باب الخيال ، ومن قبل جَدَّنا اللعين جادل رب العالمين فقال فى حق جدهم ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] . وقال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] . ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

وهم يموتون وهو من المنظرين وعلى كل حال نحن أقوى منهم وأجرأ، وأعرف بطريق الخبث والمكر وأدرى .

وبالجملة : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ؛ والشخص لا يحكم على شيء إلا بعد تصوره وتقرره ، وهذا الإنسان إلى الآن لا سبرناه ، ولا خبرناه ، ولا عرفناه .

فكيف تقطعون له بالغلبة وتفضلون علينا مسيره ومنقلبه، وإن لم تفصحوا بالعبارة فقد دللتم على ذلك بالإشارة ، وكنيتم عنه بالتلميح والكناية أبلغ من التصريح ، هذا ونحن كم قد أضللنا من حكيم ، وأذللنا من عليم، وأفسدنا من عقائد وعقدنا من فسائد ، ونصبنا لهم من مصايد ، وأرصدنا عليهم من مراصد ، وأبطلنا من طاعات وعطلنا من خيرات ، وأخللنا من صلوات ، وأحبطنا من زكوات ، ومنعنا من حجات وصدقات ، وضيعنا من ميراث ونفقات وأسقطنا من أعمال الصالحات ، وكم لنا فى الشر من سوق ، ومن سوق إلى فسوق وإلقاء فى.حرام ، وتسربل[١] بمظالم وآثام ، وكم لنا من أحكام على القضاة والحكام يستحلون بها السحت[٢] والحرام ويأكلون بها أموال الأيتام ، ويستبيحون بها الدماء والفروج ، وكم دخلنا فيهم فأخرجنا منهم الإسلام أخفى خروج ، وكم لنا فيهم من مصائب لعصائب وحواصب[٣]

---

(١) التلبس .

(٢) المال الحرام .

(٣) حواصب ، مفردها حاصبة : الريح الشديدة .

مناصب ، وكتائب نوائب ، وعجائب نواهب ، وغرائب نوادب نسلبهم بها دينهم ونمنعهم اعتقادهم الحق ويقينهم ، وكم لنا فى سكونهم إلى الطاعات من حركات ، وفى ركونهم إلى الخيرات من سقطات ، وكم لهم إلى الطاعات من همم فبردتها وساوسنا ، فحصل منها فى أحشائهم الضرم ، وفى وجود خيرهم العدم ، وفى صحة إيمانهم السقم ، وفى شباب صدقهم الهِرَم ، وفى سكون أمانهم الضربات والألم ، وفى دائرة حلالهم الحرام والحرم .

وكم وكم وكم وكم ، ونحن إلا أن على ما كنا عليه ، وهو الذى طبعنا عليه ، وندبنا إليه دأبنا عن الحق إضلالهم ، وعن الصراط المستقيم إزلالهم ، وإلى الباطل دلالتهم وإدلالهم ، نزين لملوكهم الاجتراء ، ولكبرائهم الافتراء ، ولرؤسائهم الازدراء ، ولعلمائهم المِرَاء ، ولزهادهم الرياء ، ولتجارهم الربا ولأمرائهم سفك الدما ، ولنسائهم السلاطة والزنا ، ولخواصهم الغيبة والنميمة، ولعوامهم الخوض فى كل جريمة ، وللمشايخ قول الزور ، ولنسائهم الوقاحة والفجور ، وهذا دأبنا ودأبهم ، ولم تزل أوهاقنا ورقابهم ، فإن قلنا : نصل هذا الواصل ، فإن هذا تحصيل الحاصل ، وإن قلنا : نستأنف عملا جديدا ، فإنا لم نترك فى ذلك ما يبقى مزيداً ، وقد بلغنا فى ذلك كُله الغاية وها نحن ملابسون[1] منه ما ليس وراءه نهاية ، ولم يُبق إلا المقابلة فى المقاتلة، والمباشرة بالمكاثرة والمفاتحة فى المقابحة والمكالحة[2] فى المناكحة .

فلما سمع الوزراء هذا الكلام ؛ عرفوا أن أسباب دولتهم آذنت بانصرام غير أنهم لم يقدروا على المخالفة فما وسعهم إلا المطاوعة والمؤالفة ؛ لئلا ينسبهم إلي غرض فيصيبهم منه عرض أو مرض ؛ فحسنوا له رأى المصادمة ومباحثة العالم والمقاومة .

---

(١) ملاقون .

(٢) العداوة .

واتفقت الآراء أن يرسلوا للعالم أولاً ، وانتخبوا من يصلح أن يكون مرسلاً ، فيحمله العفريت فى الرسالة ما تتضمنه من الحماسة والبسالة ، حسبما يراه رأيه التعيس وفكره المدبر الخسيس ، وكان فى شياطينه المردة وغيلانه العتاة العندة عفريت من الجن مارد مُسِن اسمه ؛ صن بن مصن ، قد أضل عقائد وأزل قواعد ، وأُشْرِبَ بغضَ بنى آدم ، وغمس طائفة منهم في نار جهنم بعدما غطهم من المعاصى فى يم ، لا يمنعه وجوم عن الهجوم ولا يخاف الرجوم من النجوم ، طالما أطال العوائق في المغارب والمشارق، وأضرم نيران الإفساد بين الخلائق ، وملأ ما بين الخافقين من مواقع الصواعق ، وفوح نتانة الوساوس وفساء الظربات في المجالس ، وانقض للشر والفتن على كل قائم وجالس ، فكم له توفيق بين الحرامين ، وتفريق بين الحلالين ، وسفك دماء بين الأخوين ، وإلقاء للبغضة بين المحبين ، والعداوة بين الإلفين ، والعربدة بين السكاري ، والحروب بين المسلمين والنصارى .

وبالجملة فقد أوتى من الوسوسة والتلبيس صنوفاً كثيرة فاق بها على ذرية إبليس ، فانتدبه العفريت الملم إلى هذا الأمر المهم ، وأمهلاه إلى أن انسلخ إهاب الضو[1] ، ثم طارا في عنان الجو ، حتى وصلا إلى سفح الجبل متعبِّد ذلك العالم البطل الذى ملأ الدنيا بالعلم والعمل ، ثم كمن العفريت فى مغارة ، وأرسل رسوله بالسفارة يقول : أبلغ عالم الإنس صاحب الكرامات والأنس ، ومقرب حظيرة القدس عن شيخ العفاريت الطغاة المصاليت[2] أنى من قديم الزمان وبعيد الحدثان[3] أضللت كثيراً من الناس بالمكر والخداع والوسواس ، وفى أمثالى نزلت ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ [الناس:١] . وابن عمى هو الوسواس الخناس ، وكان من جنس بنى آدم كذا كذا ألف عالم

(١) أى انبلج الصباح .

(٢) الشجعان من الشياطين .

(٣) نوائب الدهر .

خدامى ومعى وجندى وتبعى ، منهم رؤس الزهاد وعلماء العباد ، وعلى محبتى مضوا وباتباع أوامرى قضوا ، فأنا فتنة العالم ، وأعدى أعداء بنى آدم الشيطان الرجيم ، وإبليس الذميم اسم ذاتى ، ووصف صفاتى ، أنا مقتدى الشياطين ورأس العفاريت المتمردين ، ومحل غضب رب العالمين ، خُلِقتُ من مارج من نار ، وطبعت على إلقاء البوار والدمار ، رجوم النجوم إنما أعدت لأجلى ، وعتاة الغواة لا تصل رؤسها إلى مواطئ رجلى ﴿**إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ [الصافات:١٠] . آية منعتى .

﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَاءهِمْ** ﴾ [الأنعام:١٢١]. طراز خلعتى.

﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**﴾ [الإسراء:٦١] . مقام مقالى .

﴿**لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء:٦٢] مجال جدالى .

﴿**لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً**﴾ [النساء:١١٨] منشورى القديم .

﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ [النساء:١٢٠] مرسومى الكريم .

الشياطين تستمد من زواخر مكرى ، والأعور[1] اللعين يقتبس من ضمائر فكرى ؛ لم تمر قضية فى الزمان الغابر إلاَّ ولى الشركة فيها ، ولا حدثت محنة لنبى ولا ولى إلا وأنا متعاطيها . جدى إبليس نهض لجدى التعيس وإلى نحو آدم هوى فعصى ربه فغوى ، وأنا قضيت بالتسويل حتى قتل قابيل وهابيل ، وحُلْتُ بقوم نوح عن النصوح ، وأرشدت المجوس إلى عبادة النار ، ووضعت الناقوس وأضللت عادا وثمودا وشدادا ونمرود ، وبعثت على عبادة الأصنام فى البيت الحرام ، وعلى كيفية إلقاء إبراهيم فى

(١) الأعور اللعين : المسيح الدجال .

نار الجحيم ، وهديت قوم لوط إلى الخوض فى الثلوط[1] ومحافر القلوط[2] ، وسولت لأولاد يعقوب ، وحاولت فى قضية أيوب ، وتصديت لأم إسماعيل . وعارضت إبنها وهو مع الخليل ، وأنسيت يوشع قصة الحوت ، وساعدت على صاحب الحوت ، وجلست بالعصيان على تخت سليمان ، وحضرت وقعة طالوت وساعدت عليه جالوت ، وأنا كنت العون لهامان وفرعون ، وبحسن ضبطى قتل موسى القبطى ، وأنا فتنت داود ، وأغويت قارون اليهود وسلطتهم على الوالدة والمولود ، ودللت على نشر زكريا ، وذبح يحيى ، وجرأت على قتل الأنبياء والأولياء ، وتوصلت بتزيين الوسواس لقاتلى الذين يأمرون بالقسط بين الناس ، ودعوت على عبادة العجل قوم موسى ، وساعدت فى التفريق والإضلال بين أمة عيسى ، وكم أغويت من رهبان بما زخرفت من صلبان ، وقد بلغنى من جميع مسترقى السمع وطَنٌ على أذنى ووعاه خاطرى ووقر فى ذهنى ، وأنا أشارف التخوم وأسارق النجوم وأسابق الرجوم ، أن لى أسماء تذكر فى السماء منها الغليظ الرقبة ، وشيخ نجد ، وأزب العقبة ، والمقيم فى الدست البيضة ، والغوى على نقض عهد بنى قريظة ، والمحرض على أحد وبدر من الصناديد كل جليل القدر ، والمشهور فى أحد بالندا ، والملقى العرب بالردة إلى الردى ، وأنا المتسبب فى قتل عمر، وعثمان ، وإهلاك على أمير الشجعان ، والغوى فى وقعتى الجمل وصفين ، والملقى الفتن بين جنود المسلمين ، وإن شرى سرى إلى يزيد ، رفاض للحجاج ، والوليد ، وبى تكثر البدع بين الجماعات والجمع ، ويظهر من الفتن ما بطن ، ويغلب من التتار وأهل البوار والخسار أنواع الشرور والجدال إلى حين يظهر الدجال ، وتستمر هذه الأمور إلى يوم البعث والنشور.

---

(١) مكان غائط الحيوان ، واستعماله للإنسان من باب التساهل على التشبيه .
(٢) فضلات الإنسان .

وبالجملة والتفصيل : أنا شيخ التكفير والتضليل وتلك صنعتى من الابتداء ، وحرفتى إلى الانتهاء ، ثم إنك نبعت فى هذا الزمان ، وظهرت فى هذا المكان تريد أن تهدم ما بنيته وتعوج بصلاحك ما بفسادى سويته ، وترد كلامى وتعاكسنى فى مرامى ، وأنا كنت فى قديم الزمان من قبل أن توجد أنت فى هذا المكان ناديت بين بليه وشهرت فى ذويه قولى :

كلوا ، واشربوا ، وازنوا ، ولوطوا ، وقامروا ، وهيا اسرقوا سرا، وخوضوا الدما جهرا ، لا تتركوا شيئاً من الفسق مهملا ؛ مصيركم عندى إلى الجنة الحمرا ، وكانوا قد سمعوا وأجابوا وأطاعوا وأنابوا ، وشملى بهم منتظم، وأمرى بتفريق كلمتهم ملتئم ، وأسهم مرامى المشومة نافذة فى المشارق والمغارب ، وسيوف مناشرى المسمومة قاطعة فى الأعاجم والأعارب ، كم لى فى الأطراف والآفاق والأكناف من قاض ونائب ومانع من الخير حاجب وأمير ، صاحب ووزير ، وكاتب ومشير ، وحاسب وجليس ونديم وتابع وخديم ، وناظر وعامل وناقص وكامل ، وكم لى من جابى منوط بتفريق قلوبهم وجمع سويدائها إلى بابى ، وكم لى فى المدارس ذو وساوس ، وفى الجوامع والبيع والصوامع من مذكر وواعظ وإمام وحافظ ومقرئ وعابد وشيخ زاهد ، وكم لى فى الزوايا من خبايا ، وفى أصحاب الروايات من درايات ، وفقيه فى النادى فاق الحاضر والبادى ، يعلم لى فى الشيطنة أولادى ، وفى البيلسة حفدتى وأجنادى .

وأما سائر الفساق فى الآفاق وسكان الأسواق ، وقطان الجبال والرستاق، ورجال الصحارى والأوراق ؛ فكلهم لى عشاق وإلى دينى مشتاق. وسل عنى أرباب الحانات وسكان الخانات .

وبالجملة : غالب الطوائف وأرباب الوظائف على باب خدمتى واقف ، وعلى طاعة مراسيمى ليلا ونهارا عاكف ؛ منای مناهم ، ورضای رضاهم ، وإن خالف بعض سرى نجواهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل

ماهم، وأنت الآن جئت برايتك وسالوسك[١] وطامتك وناموسك[٢] ؛ تبدد عنى عساكرى ، وتشرد من بنى الإنس عشائرى ، وتشتت جموعى ، وتخلى من الفسق والفساق ربوعى ، من غير أن تشاورنى ولا تخبرنى ولا تحاورنى ، ولا تبحث معى ولا تناظرنى ، وها أنا قد جئت إليك ونزلت كالقضاء المبرم عليك أريد أن أناظرك فى أنواع من العلوم ، وأسألك عن حقائقها من طريق المنطوق والمفهوم ، بحضرة من الجن والإنس وسائر نوع الحيوان والجنس، فيظهر إذ ذاك جهلك فينبذك قومك وأهلك ، ويتركك معتقدوك ويتراجع عنك مريدوك ، وأفسد بين العالم صيتك وأتلفه فاجعل بيننا وبينك موعد لا نخلفه .

فلما وصل رسول العفريت الكافر الصفريت إلى الشيخ العابد والعالم الزاهد الجاهد المجاهد ، فعندما وقع نظر الشيخ عليه ووصلت سهام لحظاته إليه ؛ كاد أن يذوب كالملح ، وأن لا يقوم الفساد للصلح ، فبهت الذى كفر وأخذته الدهشة والخور ، وغلب عليه الأنبهار وكاد يحترق من الأنوار ، واستولى عليه الرجيف[٣] ، وسقط من الوجيف[٤] ، فما أبدى ولا أعاد ولا قام للصلاح ذلك الفساد .

فقال له الشيخ : مالك وما أحالك وغير حالك ، وما موجب دخولك علىّ وأنت غير منسوب إلىّ ؟ .

فقال : كف عنى أنوارك ، واطو عنّى أسرارك ؛ حتى أقول فإنى رسول ، فمالى طاقة برؤيتك ولا سواغ[٥] ، وما على الرسول إلا البلاغ .

---

(١) المنهج .
(٢) القانون .
(٣) الرجفة من شدة الخوف .
(٤) الخوف والإضطراب .
(٥) مساعد معين .

فقال : رسول أى طعين وشيطان لعين .

فقال : أنا رسول محبك العفريت ، المشقوق الحوافر ، الواسع المناخر، المسلوب المفاخر ؛ أبى السعالى الكافر العالى ، قد أقبل إليك فى جمع كثير وعدد من الجن غزير ، ومعه رؤس العفاريت والعتاة المصاليت ، والطغاة المفاليت[1] ، وقد حملنى إليك رسالة تتضمن من الخبث شجاعة وبسالة ، إن شئت أديتها ، وإن أبيت رديتها .

فقال : قل ما تريد ، وأبلغ ما معك عن ذلك العنيد ، وأوجز ما تقول ، ولعن الله المرسل والرسول ، فأبلغ الرسالة وأدأها وأسال فى أوديتها مؤداها .

فقال الزاهد وكان بالأحوال خبيرا ﴿**وإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾ [الإسراء:١٦] . والله مالكم شبه فى هذا الكيد إلا الحمار فى الوحل ، والحمام فى شبكة الصيد قل لمُرسِلَك أَرَى قَدْمِكَ أَرَاقَ دَمَكَ ، وهواك أهواك ، وأفعالك أفعى لك، وسؤالك أسوأ لك ، وخيالك أخبى لك ، فأولى لك أولى لك ، ولَعْنُ الله أولى لك ، لا شك أن الله تعالى أراد دماركم ، وأن يمحوا آثاركم ويخلى دياركم ، فتستريح البلاد من فسادكم والعباد من عنادكم .

أما أنا فأذل الخلق وأحقر الداعين إلى الحق ، ولكن بعون الله وقدرته وإلهامه وقوته لى من العلم والفضل ما أجيبه ، ويقتله من خوفه به وجيبه ، وسيظهر فى الجمع على رؤوس الأشهاد عويله ونحيبه ، وسيبين الله فى سنن الخلق فروضه ، ويكشف صحيح الحق ومريضه ، وإذا ادعى بدعاوى طويلة عريضة ؛ فإن الله تعالى قتل نمروذ العاتى ببعوضة ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [الصف:٨] .

---

(١) المحاربون .

أما سمع ذلك الملعون وعلم الشقى المغبون ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩ ، ١٠٠] .

فمتى أراد يحضر ويسبر نفسه وخصمه ويخبر ، ويصحب معه من يريد من كل جنى عنيد وشيطان مريد ، فإن الحق يحق فيبطل الباطل ويتميز فى حلبة السباق الحالى من العاطل ، فرد هذا الجواب الرسول وكشف عن حقيقة المقول .

ثم إن العفريت المخذول سأل الرسول عن أوضاع الشيخ الزاهد ، وأحواله فى المساجد والمشاهد ، وما شاهده من أموره وحكاياته وحركاته وسكناته ، وأخلاقه ومعاملاته ، وكيفية هيئته وصورته ، وما شاع عنه فى قومه من سيرته ؟ .

فقال : رأيت رجلاً سعيد الحركات كامل البركات صورته جميلة، وأوصافه نبيلة ، وهيئته جليلة ، بدنه نحيل وفضله عريض طويل ، وكلامه الصادع فى أمثالنا ثقيل قاطع ؛ فقذف الله فى قلبه الفزع ، وأخذته نوافض الرعب والهلع .

فقال : أما والله إن هذه الأوصاف لصعبة الأعراق والأعراف، وستطرحنا وراء جبل قاف[1] ، وإنها لسيمة الصلاح وعلامة الفوز والنجاح، وإنهم لهم المنصورون وحزب الله الغالبون ، ولقد ندمت على مراسلته ، وكان الأولى سلوك طريق مجاملته ، ولكن الشروع ملزم ولابد أن أتم ماعليه أعزم فواعده إلى وقت معلوم . ثم إنه أحضر وأحضر معه من جنده كل جنى ظلوم وعفريت غشوم ومتمرد شوم ومخلوق من قبل من نار السموم .

---

(١) قال ابن كثير : وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال جبل قاف ، وكأن هذا والله أعلم من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنه بعض الناس . (تفسير القرآن العظيم ٤/٢٢١) .

واجتمع من بنى آدم عند الشيخ تلامذته وأصحابه الصالحون وجماعته، وكانوا الجم الغفير والجمع الغزير ، واشترطوا بعد ما خبطوا واختبطوا وحلوا وارتبطوا أنه إن أجاب الشيخ سؤالات العفريت ، وسرى فى نارهم سريان النار فى الكبريت ، لا يظهر بعد ذلك اليوم لبنى آدم أحد من أولئك القوم ، بل يكونون عن الأبصار مختفين ، وتحت الأرض فى الجزائر والخرائب كزنادقة بغداد منتفين ، وإن عجز الشيخ عن جواب سؤاله يهلكه العفريت مع خيله ورجاله . ثم شرع العفريت فى الرسائل وإلقاء المسائل .

فقال : العَالَم على كم قِسْمٍ بالعَرَض والجسم ، وهل للعالم موجد ، وهل هو واحد أو متعدد ؟

فقال الزاهد الإمام : العَالَم على ثلاثة أقسام :

الأول : مفردات العناصر ؛ كالتراب ، والماء ، والنار ، والهواء؛ وتسمى الاستقصاءات[1] ، وأصول الكائنات والمركبات من هذه الأجزاء المفردة، ولا تستمر على حالة واحدة ، ولا تخلو من حركة وانتقال ، ودأبها التغير من حال إلى حال .

والثانى : الأجرام العلوية ؛ كالسموات وكواكبها المُضيَّة ، وهى متحركة بالبروج ، ولحركتها دائرة مالها من مركزها خروج ، فهى متحركة من بعض الجهات ساكنة كالفصوص فى المُرَصَّعات ، وتوصف فى حركتها بالصعود والهبوط والارتفاع والسقوط والرجوع والإقبال ، واستقامة الحال والاحتراق والانصراف والانحطاط إلى الحضيض والإشراف ، ويحكم عليها بالافتراق والاقتران ، والتربيع ، والتثليث ، والتسديس ، فى السيران ، والمقابلة فى الرجعة وبطء السير والسرعة[2] ، وينسب إليها ما يحدث فى

---

(١) الأصول الأربعة المكونة لمادة العالم عند علماء الحكمة المتقدمين .

(٢) الاقتران ، والتربيع ... ، هى الأحوال المختلفة لحركة الأفلاك .

العالم السفلى من جزئى الوقائع والكلى ، ومن نحوسة وسعادة ، ونقص وزيادة ، وخير ونفع وضر ، وتأثر وتأثير ، وقليل وكثير ، وانحراف واعتدال ، وحدوث وزوال ، وصحة وسقم وسكون وألم ووجود وعدم . فبعض من لم يعرف الطريقة يسند هذه الأشياء على الحقيقة ؛ وذلك لقصور فهمه وقلة العقل كقول الجاهل : أنبت الربيع البقل . وبعض من لم يكن له إدراك يزعم أن هذا إشراك . لا يسند هذه الحوادث إليها ولا يعول فى ذلك أبدا عليها لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، ولا يسلم فى ذلك إلى طريقة المجاز .

والمحققون من العلماء والراسخون فى العلم من حكماء الفقهاء يسندون هذه الحوادث والتأثير إلى قدرة اللطيف الخبير الصانع القدير ، الفاعل المختار الذى يخلق ما يشاء ويختار ، فإذا نسبوا هذه الأفعال إلى غير ذى الجلال ؛ فإنما يجعلونها فى ذلك الباب كالآلات والأسباب ؛ كتأثير الخبز فى الإشباع والنار فى الإحراق والإيجاع ، وكفعل الماء فى الإرواء والدواء فى الأدواء ؛ وإنما ذلك كله بتقدير صانعها وما أودعه فيها من خواص بدائعها وصفات ودائعها ، كخاصية الإسهال المودعة فى السقمونيا[1] وخواص التصيير وغيره الكامنة فى المومياء[2] ، والإسكار فى الخمر ، والإحراق فى الجمر ، وقد رأينا القوّة النامية عقيب الأمطار الهامية ، والشمس حامية تهيج وتنمو وتموج وتزكو ، وهذا الصنيع البديع إذا حلت الشمس فى برج الحمل وقت الربيع ، وإذا نقلت إلى برج الأسد احترق ذلك الجسد ، وعند نقلها إلى الميزان ينقلب هذا الزمان ، وكذا إذا تحولت الغزالة[3] إلى برج الجدى فكأنه بلغ إلى محل الهدى ؛ فتموت إذ ذاك قوّة الزمان ، ويضعف لذلك غالب الحيوان .

---

(١) السقمونيا : نبات يستخدم كملين بسبب الإسهال .

(٢) نوع من الدواء .

(٣) الغزالة : دائرة من دوائر الفلك .

وهذا كله مشاهد محسوس لا يمكن أن تنكره النفوس ، خواص وضعها خالق الكون يستفاد بعضها من الطعم والريح واللون ، وبعضها لا يدرك ما أودع فيه إلا بإرشاد خالقه ومنشيه ، هكذا جرت سنة العزيز الوهاب أن الأحكام والوقائع تناط بالأسباب ، وقد يتخلف منها الأثر عن المؤثر ؛ ليعلم من ذلك وجود القاهر المدبر ، وأنها مقهورة تحت الأمر ومقسورة قسر[1] العقل مع الخمر . ولولا أن ذلك من سر جسيم لما تخلفت النار عن إحراق إبراهيم ، ولما ولدت مريم عيسى ، ولا أغرق البحر القبط ، وأنجى بنى إسرائيل وموسى ، وكم من آكل وهو جيعان ، وشارب وهو عطشان ، ومتدثر يتدفأ بالنار وهو بردان ، والفلك الأعظم محيط بهذه الأجرام ، ونسبتها إليه كنقطة للبحر الطام ، متأثرة بتأثيره دائرة بتدويره ، يتصرف فيها على حسب ما شاء باريها وصرفه فيها منشيها ، فاطر السموات والأرض جامع الخلائق ليوم العرض ، وكما هى محاطة بالدائرة الفوقانية كذلك هى محيطة بالكرة التحتانية[2] .

القسم الثالث : العقول والنفوس الملكية ؛ وهى أشرف من الأجرام العلوية، ومقام هذه العقول فى مقام عزيز الوصول ، يسمى أعلى عليين وجواهرها لا توصف بتحريك ولا تسكين ، ولا بهذه البساطة والتركيب ، وأمرها بديع وشأنها عجيب .

وأما العرض ؛ فما لا يقوم بذاته ، وهو فى العالم كالألوان والطعوم وأصواته والروائح والقدر وإرادته .

وأما الجسم : فما تركب من جوهرين فأكثر وما قام بنفسه يسمى : الجوهر[3] .

---

(١) القهر .

(٢) دائرة فلكية .

(٣) مصطلح فلسفى يقصد به : أصل الشىء ومضمونه .

وأما الموجد للعالم : فهو واحد لا ينثنى ، واحد ولا يتجزأ ، ولو لم يكن للعالم صانع لكان العالم أضيع ضائع ، وهل رأيت مصنوعا بلا صانع ، وسقفا مرفوعا بلا رافع ، وهل نَفْى والصانع إلا مكابرة وما يجحده إلا النفوس الكافرة .

فقال العفريت : فما الدليل على وجود الصانع ؛ العقل والنقل ، أم أحدهما متبوع والآخر تابع ؟

فقال العالم الزاهد : قد أطبقت العقلاء وأجمعت الحكماء أن العقل دليل على وجود الصانع وبه الدلالة ، والشرع له تابع ، وكما هو الدليل على وجود الذات كذلك هو الدليل المستقل على إثبات الصفات ، وهى صفات الكمال ونعوت الجلال .

فقال العفريت : فما الدليل على وحدانيته؟

فقال الزاهد : كل من العقل والشرع كاف فى دلالته .

قال العفريت : فما المراد من عالم الكون والفساد ؟

فقال العالِم : معرفة أمور المبدأ والمعاد .

قال العفريت : فما أفضل العقل أم النقل ؟

فقال العالم : كل منهما حجة الله قد أسند له من عباده من يراه ؛ وذلك إن الله لما أرشدنا إلى الدين القويم وثبت أقدام توحيدنا على الصراط المستقيم؛ نبهنا إلى أن المقصود من الدخول فى دائرة الوجود معرفة مُوجِدنَا المعبود كما قال من يقول للشىء كن فيكون ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦،٥٧] . ثم طلب مراضيه بما تبرز به أوامره وتقتضيه ؛ وذلك هو الرشاد يا ذا المكر والعناد

إلى المعارف الإلهية وما به نظام المعاش ونجاة المعاد . وليس لنا دليل فى العلم والتعريف سوى طريقتين مرشدتين إلى التوقيف على أمور المبدأ والمعاد وما بينهما فى دار التكليف أحداهما : ما جبلنا عليه وما اكتسبناه من العقل . وثانيتهما : ما بلغنا من الأخبار الصحيحة والنقل .

فالعقل : لا يدخل فى إثبات المعارف الإلهية ، ولا فى هذا الباب المقدم من الأمور المعاشية والمعادية ، وهو حجة الله القاطعة البالغة وأصل براهينه الساطعة الدامغة ، وبواسطته استعبد عباده الكملة ، وإلى من خصه به أرسل رسله . ثم العقل جوَّز إرسال الرسل ، ولا يرد ما تقوى به لتوضيح السبل .

والنقل : لا يأتى بما يناقض العقل ؛ وإنما يرد بما يزكى قضاياه ويصقل مرائى أحكامه أحسن صقل ، ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس ما حصل للكتاب من معاضدة السنة والإجماع والقياس[1] ، ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول لأشبه فرعا يوجد ماله من أصول ، إذا أقبلت مواكب الأوامر الإلهية على لسان الرسول ، خضعت جماجم العقول ، منقادة بزمام الانقياد والقبول ، سامعة لما يرد منها مطيعة لما يصدر عنها ، فتارة يظهر للعقل ما للأوامر الشرعية من الحكم كنار على علم ، وتارة يعجز عن الاطلاع على ما تضمنته الأحكام النقلية من الحِكَم ، فإذا ورد الشرع بحكم وكان للعقل فى حكمته إدراك ؛ آثره وأكده واستمسك به فى تصرفاته أقوى استمساك ، وإن لم يكن له فى إدراكه مدخل نادى بلسان العجز والتسليم ، سبحان من لا يُسأل عما يفعل .

والحاصل : أن سلطان العقول فى ممالك خليفة الشرع وولايته معزول، ومن جملة ما ورد على لسان السمع ، على لسان عدوك صاحب الشرع الصادق فى المقال مما ليس للعقل فيه مجال أحوال المعاد ومبدؤها ما يطرأ على العباد فى حد هذا الكون من الفساد.

---

(١) الإجماع والقياس : هما من الأدلة الشرعية .

فقال العفريت : أخبرنى يا ذا ، الإنسان مخلوق مماذا ، وما الآدمية والنفس الإنسانية ، وهل هى واحدة أو متعددة ، ومآلها إلى أين بعد وقوع البَيْنِ ؟

فقال العالِم : الإنسان ؛ محلوق يا مصفعة[1] من هذه العناصر الأربعة التى مر ذكرها وتبين أمرها ؛ التراب والماء والنار والهواء ، فإذا تمازجت واعتدلت إذا تزاوجت حصل لها من التركيب أمزجة ثمانية لا على الترتيب.

والآدمية ؛ عبارة عن القوة المميزة بين الحسن والقبيح والفاسد والصحيح ، والحق والباطل والخالى والعاطل ، والخير والشر ، والنفع والضر . والمميزة لهذه الأشياء الفارقة يقال لها : النفس الناطقة ، وهى ثلاثة أنواع يا خارج الطباع ، أحدها : الروح الطبيعية القائمة بالكبد وهى من الأغذية تستمد . الثانية : الروح الحيوانية ومقامها القلب أى كلب ، وللأبدان منها حراك واستمدادها من حركات الأفلاك . الثالثة : الروح النفسانية ومقامها فى الدماغ ، ومنها الحركات الذهنية والقوة التامة القوية تطلب غذاءها من الروح الطبيعية ، والقوة المميزة تطلب ما يسعدها فى الدارين من الروح النفسانية ، ويبعدها فى المقامين عن الأسباب الشقية واستمدادها وقوتها من الأجرام العلوية وأعلى مقامات هذه النفس الحكمة ، والحكمة أوفى منحة وأوفر نعمة ، وقد قال تعالى ﴿**يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكرُ إلاَّ أُولُواْ الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:٢٦٩] . ومصير هذه الأرواح إلى عالم الغيب لأجل الثواب والعقاب .

وقيل : حقيقة نفس الإنسان : أيها المارد الشيطان ؛ لطيفة روحانية، ودقيقة ربانية ، لها تعلق ربانى بقلبه وقالبه الجسمانى ، وهى المدركة العالمة

---

(١) من يصفع كثيراً . والمعنى : الحقير .

العارفة الفاهمة ؛ بها يتكلم اللسان ، وتبصر العينان ، وتسمع الأذنان ، وتبطش اليدان ، وتمشى الرجلان ، وهى المخاطبة والمعاتبة ، والمُثابَة المُعاقبَة والمطلوبة والمطالبة ، ويطلق عليها لفظ القلب تارة ولفظ الروح أخرى ، ويقال لها : النفس مرة ، ولفظ العقل أيضا .وابن آدم هو المخصوص بهذه الكرامات ، وبهذه النفس دون سائر الحيوانات وإن كان يطلق على الجميع أن لها نفسا بالاشتراك لكن هذه النفس الناطقة ، والنطق هو الإدراك .

واختلفت أيضا وتحيرت الألباب فى صنع رب الأرباب ، وتاهت الأفكار والفِطَن فى كيفية تعلقها بالبدن ، ولا يحصل لأحد على هذا وقف إلا بطريق الولاية والكشف ، وهذه النفس لما كثرت صفاتها وتضادت نعوتها تخالفت أوصافها وازداد فى صفاتها اختلافها ، حتى قسموها فقالوا : أنواعها ثلاثة : ناطقة وشهوانية وغضبية رضية ، فالناطقة مسكنها الدماغ ولها فيه مساغ[1] . والكبد : مسكن الشهوانية . والقلب : مسكن الغضبية الرضية ، فأية نفس غلبت أختيها جذبت أحوالهما وصفاتهما إليها .

وهذه يا أتعس زوبعة كالعناصر الأربعة ؛ فإنها إذا فسد مزاجها ، وعدل عن الاعتدال ازدواجها عسر علاجها واستحال إلى المطلوب الطالب، وعجز عن المعالجة الطابب ، ففسد البيان وانهدمت الأركان .

وقيل : هما روح ونفس بغير لبس ، وهما ضدان بل ندان لا يجتمعان ولا يرتفعان . وطبع النفس يا لئيم طبعك طبع الشيطان الرجيم ، كالنار فى جوهرها وخاصة عنصرها تنسب إليها الصفات الذميمة والخلال غير المستقيمة كالجهل والغضب ، والحدة والصخب ، واللؤم والسفه ، والطيش والشره ، والحمية والشهوة ، والقسوة والجفوة ، والحسد واللجاج ، والحقد

---

(١) راحة واستقرار .

والاحتجاج ، والحرص والبخل ، والتوانى والكسل ، والحمق والخيانة ، والفجور وعدم الأمانة ، والترفع والرياء ، والمخاصمة والمراء ، وسائر الأخلاق الذميمة والأوصاف المشؤمة الملومة ، والملكات الخبيثة الردية ، والحركات الشيطانية ، فهى كالنار فى إحراقها وحدتها واستشاطتها وشدتها ودخانها ولهيبها ، وإهلاكها وتعذيبها وأقدامها فى إعدامها ، وأكل ما تجده وما تصل إليه تفسده ، وطلب العلو والغليان والغلو .

وطبع الروح : يا أنحس مجروح ؛ طبع الماء فى النشور والنماء ، ينسب إليه كل خلق كريم وطبع سليم صافى الجوهر مالامسه يطهر ، شيمته الحياء والعلم والصدق والحلم والتفويض والتوكل والتسليم والتجمل والاحتمال، والإناة والصبر والموافاة ، والتودد والإسداء ، والسكون والإعطاء والركون ، والبذل والرضا والفضل ، والحياء والعدل ، والتواضع والعفة وعدم الترفع والخفة ، والسلامة والسهولة وسرعة الانقياد واللين والوداد، والرقة والصفاء ، والكرم وعدم الجفاء ، إلى سائر الأخلاق المحمودة والأوصاف المطلوبة المودودة ، وأيتهما قويت غلبت وجذبت الأخرى إليها وسلبت ، وسيَّرتها على طبعها واستَخْدَمتها على ربعها ، فكم من شيطان يرى فى صورة إنسان ومن إنسان غلبت عليه أخلاق الجان ومن جان فى صورة إنسان ، ونظير هذا الروح والبدن يدركه ذو العقل والفطن . فإن الروح من عالم نورانى لطيف سماوى ، والبدن من عالم ظلمانى كثيف أرضى ، فأيهما غلب على صاحبه جذبه إلى مركزه فى جانبه ، قال الله تعالى ، وعز كمالا ، وجل جلالا ﴿**يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ [آل عمران: ٥٥] . وقال جل علياً ﴿**وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا**﴾ [مريم :٥٧] . وقال ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**﴾ [الأعراف:١٧٦] . ولكنه أخلد إلى الأرض .

فالأنبياء عليهم السلام صارت أجسادهم أرواحا ، والكفار مثلك صارت أنفسهم ظلمانية أشباحا .

وقيل يا زوبعة : الأنفس أربعة : أمارة ؛ وهى أنفس مثلك ؛ الكفار الطغاة . ولوامة ؛ وهى أنفس العصاة . وملهمة ؛ وهى أنفس المخلصين . ومطمئنة ؛ وهى أنفس الأنبياء والمقربين .

والحق يا جاحده ماهى إلا نفس واحدة ، لكن لما تجلت فى ملابس الصفات وتكثرت لها الأخلاق والسمات نوعوها ، وبمقتضى التنويع فرعوها تنزيلا للتنويع بالصفات منزلة التنويع فى الذات ، فيقال : كانت نفس هذا شيطانية فتاب فصارت رحمانية ، وكانت نفس ذاك أبية فصارت دنية قال من براها ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس:٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠] .

قال العفريت : أخبرنى أيها الباصر كيف تركيب هذه العناصر ؟

فقال الزاهد : بحسب الخفة واللطافة ، والثقل والكثافة ؛ ولما كان عنصر التراب أثقل كان أركد من غيره وأنزل ، ومن فوقه عنصر الماء، وفوق الماء عنصر الهواء ، ومن فوق هذه الثلاثة عناصر عنصر النار ، وهو بها محيط دائر، وكذلك كل عنصر محيط بما تحته وقد حققت هذا وعلمته .

قال العفريت : أخبرنى عن أقرب الأشياء إليك ؟

قال العالم الأجل : أقرب الأشياء الأَجَلُ .

قال : أخبرنى عن أبعد الأشياء عنك ؟

قال العالم الأكبر : مالم يقسم ولم يقدر .

قال : أخبرنى عن الشىء الممكن عوده ؟

قال : الدولة إن زالت وتغيرت واستحالت ؛ يمكن ردها ولا يستحيل عودها.

قال : أخبرنى عن الشىء المستحيل عوده ؟

قال : الشباب بغير شك ولا ارتياب .

قال : أخبرنى عما لا يمكن بالاكتساب ، ولا ينال إلا بتوفيق الوهاب ؟

قال : العقل الغريزى[1] فإنه وهبى عزيزى .

قال : أخبرنى عما لا يمكن ضبطه ولا ينضبط ربطه ؟

قال : الدهر إذا ولى والسعد إذا تجلى .

قال : أخبرنى يا ذا الجد عن الهزل الذى يراد به الجد ؟

قال : إبراز حكم الأمثال والآيات على لسان الحيوانات والجمادات .

قال : أخبرنى عما لا يمكن الإحاطة به ولا الوقوف على معرفة كنهه ؟

قال : عظمة صانع الكائنات ، خالق الموجودات ، تعالى أن يحاط به علما ، وتقدس أن تدرك عظمته معرفة ووهما ولهذا قال سيد المرسلين وحبيب رب العالمين : ((لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))[2] . وقال : ((سبحانك ما عرفناك حق معرفتك)) وهذا مصداق قوله تعالى ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الأنعام:٩١] .

فلما طالت المقاولة وانتهت إلى هذا الكلام المجادلة أقبل الليل ، وحل بالعفريت وجنده الويل ، وتصدع المجلس ، وقام العفريت وهو مبلس، وتواعدوا إلى الصباح عند قول حى على الفلاح أن تجتمع الوجوه الصباح

---

(١) حقيقته .

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذى : كتاب الدعوات ، باب (٧٦) (٣٤٩٣) وهو حديث حسن .

لرد جواب الشياطين القباح ، فتفرقوا وقد أحاط بالعفريت الوهم ، ونفذ فى أحشائه من سهام الذل أقطع سهم ، وبات لا يقر له قرار ولا يأخذه اصطبار، وساوره الافتكار وثاوره الهم والدمار والغم والبوار :

إلى أنْ أضَاءَ الصُبْحُ كَالحقِ مقبلاً وَوَلى ظَلامُ اللَّيلِ كالجَهْلِ مُدبراً

فاجتمع من كان بالأمس حاضرا ، ومن سمع بحضورهم ولم يكن ناظرا من جموع الإنس والجن وطوائف الجن والبِن[1] ، وأخذ كل مقامه وابتدأ العفريت كلامه.

وقال : ما منبع الصفات الحميدة والشمائل السعيدة المار ذكرها ، القار[2] أمرها ، وهى يا هذا نتيجة ماذا ؟

فقال العالم المحقق العامل المدقق : هى ثمرة العقل القويم الهادى إلى الصراط المستقيم ، ويكفى العقل الشريف أنه مناط التكليف له ، الله يخاطب، وبه يثيب ويعاقب ، وبه يأخذ ، وبه يعطى وتابعه يصيب ولا يخطى ، وكلما كان العقل أتم كانت محاسن الأخلاق أعم ، وكلما كان رأى العقل أصوب كان فى اقتناء مكارم الأخلاق أرغب .

قال العفريت : فهل هو نوع متحد أو طريقه متعدد ؟

قال الشيخ : العقل نوعان وحكمه واحد لا يختلف فيه اثنان ، أحدهما : العقل الغريزى اللطيف ؛ وهو مناط التكليف يحدثه الرحمن ويتدرج إلى بلوغ الإنسان فيكمل إما بالسن أو الاحتلام ، ويجرى عليه إذ ذاك قلم الأحكام ، ويدخل فى حيز المخاطبين من ذوى الأحلام ، ويترتب عليه الحساب والعقاب من الحلال والحرام . والثانى : يحصل بالاكتساب والتجربة فى كل باب ولهذا

(١) مكان إقامة الجن .
(٢) المستقر .

يقال : إن الشيوخ أكمل عقلا من الشباب ، وقيل : من بَيَّضَتْ الحوادث سواد لمَّته[1] ، وأخلقت التجارب لباس جدته ، وأرضعه الدهر من وقائع الأيام أخلاف ذريته ، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته ؛ كان جديرا برزانة العقل ورجاحته ؛ فهو فى قومه بمنزلة النبى فى أمته .

قال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأدباً وبتقلب الأيام عظة .

وقالوا : التجربة مرآة العقل .

وقال :

ألم تر أن العقل زين لأهله ولكن تمام العقل طول التجارب

قال العفريت : ما فائدة العقل ؟

قال العالم : فائدته الإرشاد فى بيداء الجهالة إلى جادة الرشاد ، والإعانة فى الشدائد والوقوع فى مصايد المكايد ، وحصول الخلاص من شرك الاقتناص ، وإجابة الإغاثة عند الاستعانة والاستغاثة ، ومد المعونة إذا انكسرت من الجبل السفينة فى بحر الملامة ، والخلاص إلى بر السلامة، والإغناء من كنز السعادة ، والصبر عند استيلاء نوائب الفقر .

قال : فمن العاقل فى العالم ومن يطلق عليه هذا الاسم من بنى آدم ؟

قال العالم : العاقل من يحتمل إذا ضيم ، ومن هو فى الغضب حليم ، فإذا أعطى شكر ، وإذا منع صبر ، ويعفو إذا قدر ، ويستهين بأمور الدنيا ولا يغفل عن أمور الأخرى .

قال العفريت : ما الفائدة فى حب الدنيا والرغبة إلى مافيها من الأشياء، ولأى معنى غلب الحرص والهوى والرغبة فيها على أهلها وبنيها ؟

قال العالم : لأجل قيام العالم وانتظامه على المنهج الأقوم وبقائه

---

(١) الشعر المجاوز شحمة الأذن .

المطلوب إلى الأجل المضروب ، الذى قدره موجده القديم ﴿**الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس:٧٩] . ولابد من أن تتم كلمته وتنفذ مشيئته ، ولولا الحرص والأمل ؛ لبطل العلم والعمل ، فإنهما لحجاب الغفلة يغشيان أعين البصائر ويغطيان طرق الاستدلال والضمائر ، فلذلك ذهلت العقول عن التأمل فى العواقب ، واشتغلت بالتهائها[1] عما يجب عليها أن تراقب ، ولولا طول الأمل ؛ لما رُجى العمل ولما انتظم أمر المعاش ، ولا اهتم لادخار قوت ورياش، ولا افتكر صاحب اليوم فى أحوال غد ، ولارتفعت المعاملات ، وما داين أحدا أحد ، ولا زرع زارع ، ولا غرس غارس ، ولا بنى بان ، ولا اخضر يابس ، ولانقرض إذ ذاك نظم العالم وبانقراضه تتقرض أمور بنى آدم.

قال العفريت : أخبرنى عن أصل الإنسان ومم جوهره وجوهر المَلَكِ والجان ؟

قال الشيخ : أما جوهر المَلَك : فمن العقل المحض براه رب السماوات والأرض ؛ ولذلك لا يصدر من الملائكة إلا الشيم المباركة من الطاعات لمولاهم والانقياد لأوامر من أنشأهم ، وامتثال ما أمر من أمر مروم ، وما منا إلا له مقام معلوم ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:٦] .

وأما جوهر الجان ؛ وأصلك يا أخس شيطان : فمن الأخلاق الذميمة والصفات المشومة ، فلهذا لا يوجد منكم إلا المكر والبَيْلَسَة والشيطنة الوسوسة ، وأنحس بصفاتكم من صفه ولم يكن بينكم وبين الحق معرفة ، فأنتم يا أنحس بغيض ، وأنجس مهيض مع الملائكة فى طرفى نقيض .

وأما جوهر الإنسان : فما اشتملت عليه صفاتا الملك والجان ، فمن غلب عقله شهوته ؛ ألبس من مكارم الشيم خلعته ، واضمحلت ظلمات نفسه فى أنواع الطاعة ، وتجلت صفاته ذاته من سنن الأبرار فى جماعة ، وخط

---

(١) لعب الدنيا ومتعها .

رسم اسمها قلم الكرام الكاتبين ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّين وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨ ، ١٩، ٢٠، ٢١] . فهو وإن كان بجسمانه مع الإنس له حضور وأنس ، لكن بسره فى عالم الملكوت حضرة القدس ؛ فهو بصفاته المباركة أشرف من الملائكة . ومن غلبت شهوته عقله واستولت على قلبه حجب الغفلة فانغمس فى بحر الشهوات، واستحوذتم أنتم عليه بذميم الصفات، وأشقاه القدر السابق ، ولم يعقكم عن التصرف فيه عائق ؛ فهو بالنهار ساه وبالليل لاه ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩] . فهو أخسر من أرذل الحيوانات ، وأدنى من أدك الجمادات ، قد خاب مآبا وتعس انقلابا ويقول يوم القيامة يا ليتنى كنت ترابا .

قال الراوى : فلما انتهى الكلام إلى هذا المقام ؛ أمسك العفريت عنانه ، وأخرس الله لسانه ، وظهر فضل الزاهد وعلمه ووفور حُكْمِه وحِكَمِه وفهمه، وأنه أصاب فيما أجاب ، ولزم العفريت ومن معه من الجن والعفاريت، وطوائف المردة والشياطين ، والعندة المتمردين ، وذوى الإبلاس[١] والوسواس الخناس ما شرطوه على أنفسهم من التخفى وعدم الظهور ، والتفرق فى الخرائب والكفور؛ فتفرقوا واختفوا مُصلَّمين[٢] ومجدعين[٣] ، انتفوا وسكنوا الخرائب والحمامات والحانات والخانات ، فلم يظهروا بعد ذلك للإنس وحصل منهم بذلك للإنس الأُنس ، واستراحوا من مشاهدة طلعتهم القبيحة ، واستمرت إلى يوم القيامة من تلك القبائح مستريحة .

وهذا آخر الباب والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) من لا خير عندهم .
(٢) مقطوعى الأذن .
(٣) مقطوعى الأنف .